محتويات الفصل الثانى:

- تمهيد.

أولاً - العلاقة بين الحركة الحداثية و نظرية المعرفة.

ثانياً - مراحل تطورتناول اللغة كمحور أساسى لنظرية المعرفة.

ثالثاً - أثار تجليات الحداثة فى استقلال اللغة، و علمنة النقد، و نسبية المعرفة.

- تعقيب.

تمهيـــد:

من بحثنا فى الفصل السابق لجذور الحداثة وجدنا أن الحركة الحداثية كانت بدايتها منذ القرن السابع عشر بداية فلسفية، و متمركزة حول مشكلة المَعرفة، بمعنى أن الكوجيتو الديكارتى كان رفضاً لفلسفة التلقين و الاتباع المسيطرة قبل ذلك، و التى كانت تخضع للتعليم المدرسى و سلطة الكنيسة.

ولذا كانت التغيرات المعرفية أسبق من غيرها، إن لم نقل كان لها الريادة، كما سبق أن رأينا، و مما سنتناوله تفصيلاً فى دراستنا لنظرية المعرفة و علاقتها بعملية التحديث.

وما نُريد توضيحه هنا هو حصر الاهتمام وقصره على اللغة باعتبارها أساس و محور تمركز مبحث المعرفة بمعناه التقليدى، الذى اختفى كمبحث فلسفى بعدما قُتل بحثاً على أيدى فلاسفة الأنساق (منذ أفلاطون و أرسطو إلى هيوم و لوك ففلسفة كانط النقدية)، و مع فجر الحداثة بدأت الدراسات اللغوية و الألسنية تظهر على حساب مبحث المعرفة، الذى أدى تحلله و التعمق فى بحث معطياته إلى ما تمخض عن فكر الصحوة الحداثية والنظرة الفلسفية العامة، التى ركزت البحث و الاهتمام على بحث و دراسة اللغة، كنافذة أساسية للإدراك و كدعامة للمعرفة، مما تولد عنه ميلاد نجم شاهق، مازال ساطعاً فى سماء الفكر الفلسفى بأسره، ألا و هو البحث اللغوى الذى سيطر و تملك منهج الفكر الفلسفى، و بات يفرض مناهجه البحثية المنتجة على العديد من العلوم الإنسانية، فأصبح لا يحل فقط محل نظرية المعرفة بل أصبح منوطاً بمجمل الهيكل الفلسفى الحديث و المعاصر. فأصبحت الدراسة اللغوية هى بوابة كل فلسفة ؛ بل باتت المقصد و الموجه الفلسفى، لكل ما يمكن أن يتناوله الفيلسوف المعاصر، حتى قيل عنها إنها موضة العصر، و هذا ما بدا واضحاً على الساحة الفلسفية منذ (البنيوية

و الوجودية و الظاهراتية و التلقى[*] و التفكيك) و لا ينكر أحد كونها جميعاً فلسفات لغة.

"فالمعرفة هى نتاج العقل البشرى، و عملياتها تفسر العلم و لا تقدمه بكل حقائقه البدائية و الفطرية،... لذلك فإن الفلسفة من الآن فصاعداً يجب ألا تُشغل بالسؤال الخادع عن ((الحقيقى)) و لكن بالتناسق العميق المحدد أو – بالحقائق الأولية – التى تشكل الفهم الإنسانى...إن معرفتنا عن العالم ذات أشكال لا سبيل للخلاص منها، و هذه المعرفة محكومة باللغة التى تقدم تلك الأشكال... و إن المعانى حسب وجهة نظر سوسير محكومة بنظام من العلاقات و الاختلافات يقرر و بشكل فعال طريقتنا فى التفكير والإدراك".[١]

فهل من الضرورى أن نُركز حديثنا فى هذا الفصل على بحث اللغة و تطورها ؟ لمعرفة ما إذا كانت تمثل امتداداً فلسفياً طبيعياً لنظرية المعرفة أم لا ؟ و هل عمليات التحديث هى التى حولت و ركزت البحث الفلسفى إلى عمق العملية المعرفية و حصرها فى بحث اللغة و نظامها و عناصرها وعلاقات رموزها ؟ وهل طرق استخدامها (من قراءة أو كتابة) تُعد من مراحل

(*) التلقى من النظريات النقدية المعاصرة، و هى تحصر عملية إنتاج المعنى فقد فى عملية تلقى المتلقى لها، فالمتلقى وحده هو الذى يُحدد معنى الرسالة أو النص الأدبى وقت تلقيه و بحسب أفق توقعاته الذى يأتى به إلى النص، و سوف نتناول جميع تلك النظريات النقدية بالتفصيل فى الفصل الخامس من هذا البحث .

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ترجمة رعد عبد الجليل، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية عام ١٩٩٢ م، ص (١٠) . و يراجع أيضاً ما كتبه د / عبد العزيز حمودة " المرايا المحدبة " فى موضوع تحول بحث نظرية المعرفة إلى بحث و دراسة اللغة، ص ص (١٧٩ – ١٨٤)، و ما ذكر، عن ميشيل فوكوه و علم اللغة و كتابه: "الكلمات و الأشياء ".

تطور البحث اللغوى فى اتجاه التحديث كجذور للحداثة ؟ وكيفية انعكاس التحديث و الحداثة على المعرفة و اللغة و النقد ؟.

ومن هذا المنطلق سنتناول محتويات هذا الفصل فى تسلسل منطقى كما يلى:

- العلاقة بين الحركة الحداثية و نظرية المعرفة.
- مراحل تطور تناول اللغة كمحور أساسى لنظرية المعرفة.
- آثار تجليات الحداثة فى استقلال اللغة، وعلمنة النقد، و نسبية المعرفة.
- ثم بعد ذلك نذيل الفصل بالتعقيب.

أولاً : العلاقة بين الحركة الحداثية و نظرية المعرفة :

أ ـ أسباب التحول من المعرفة إلى اللغة :

يمكن القول بأن التحول من المعرفة إلى اللغة لم يحدث دفعة واحدة، و لكن جاء متمخضاً عن نتائج بحوث أدت إلى تحولات فلسفية و ثقافية (فبعد ما نادى ديكارت بالمعرفة العقلية أتى لوك و هيوم بالشك فى المعرفة الفطرية، و قالا بالمعرفة التجريبية التى تُستمد من الحواس، ثم أتى كانط و قال بالمعرفة النقدية التى يشارك فيها العقل الحواس لتحصيلها، ثم يتحول مسار البحث إلى اللغة على أيدى الرومانسيين(*)، و هذا ما سيتضح من تناولنا له فى النقطة الثانية من هذا الفصل)، إذ كان هذا التحول إفرازاً تاريخياً و نتاجاً طبيعياً لعدة عوامل أهمها:

١. الصحوة العقلية التى أدت إلى النظر العقلى للمعرفة، و بحثها كفكر لا يقوم إلا باللغة، و لهذا سادت النظرة العقلية للمعرفة، فتحولت الدراسة لثنائية اللغة (الدال / المدلول) بدلاً من ثنائية المعرفة (المحسوس / المعقول)، و تحولت بعد ذلك الدراسة لبحث علاقات عناصر و نظام اللغة، بدلاً من أدوات و عناصر و حدود المعرفة التى كشفت الحداثة عن زيفها الميتافيزيقى. (**)

٢. ظهور الفلسفة النقدية من جهة، و موجات من الشك المعرفى من جهة أخرى، أدى إلى الثورة على كل قديم و المطالبة بضرورة مراجعته و نقده، مما كشف الغطاء الميتافيزيقى لجميع نظريات المعرفة، فكان لزاماً رفضها جميعاً، و فى الوقت نفسه كان لابد من بديل يأخذ بالمنهج العلمى

(*) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٩٦، ٩٧).

(**) Wallace Martin : " Introduction, " The Yale Critics: Deconstruction in America (Minneapolis: u of Minne sota P, 1983),p 119 –91.

الواقعى و التجريبى، فجاء البحث اللغوى الذى برز و ظهر لحظة كشف زيف الميتافيزيقا ليحل محل نظرية المعرفة. (١)

٣. كان البحث اللغوى قد خطى خطوات هائلة بسبب تقدم مناهج العلوم التجريبية، فأخذت الدراسة اللغوية بالمنهج الرياضى و الوصفى لبحث العلاقات بين عناصر اللغة رافضةً النهج التاريخى المُقارن و النظريات الميتافيزيقية، مما أهل البحث اللغوى أن يحل محل نظرية المعرفة ؛ بل و يتقدم لريادة العلوم الإنسانية الأخرى. (٢)

إذن احتلت اللغة مكان الصدارة فى الدراسات المعاصرة، فلا دراسة تبدأ إلا من اللغة، فبدأت اللغة تدرس آلياتها و فعالياتها و خصائصها الذاتية، و علاقاتها بكافة العلوم الاجتماعية و الثقافية و آثارها عليها، و تأثرها بها.

وعلى ذلك أصبحت الدراسات اللغوية تنظر للغة من خلال ثلاثة مستويات، الأول اللغة كملكة إنسانية تمثل قدرة الإنسان على تأسيس و إمكانية استخدام الإشارات للتواصل، أى اللغة كنظام من الإشارات المتميزة يرتبط بأفكار متميزة(٣)، و من هذا يظهر التأكيد على التماثل النفسانى للغة كنظام (بمعنى أن الكلمة تستدعى نفس الصورة الذهنية لدى جميع أبناء اللغة الواحدة أى هم متفقون فى فهم و ترجمة الإشارات اللغوية للغتهم)، أما المستوى الثانى فهو مجموعة القواعد والقوانين المُحددة لعلاقات الإشارات اللغوية

---

(١) عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٩٤، ٩٥).

(٢) المرجع السابق : ص (١٠٧).

(٣) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام " ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة الترجمة مالك يوسف المطلبى، بيت الموصل، العراق ١٩٨٨م، ص (٢٨). و يلاحظ أن المترجم يكتب اسم المؤلف (سوسور) و هى ترجمة حرفية صحيحة عن الإنجليزية تختلف عن ما درجنا عليه من ترجمة الاسم عن الفرنسية (سوسير).

ببعضها كنسق، و المستوى الثالث هو مستوى الأداء الفعلى كتطبيق لاستخدام اللغة لفظاً أو كتابةً للتواصل بين الأفراد، و أهم ما أتت به اللغويات المعاصرة هو النظر للغة كنظام، حيث أدى ذلك لانحراف مسار الدراسة اللغوية من البعد التاريخى (للكلمة) إلى البعد التزامنى الآنى، أى إمكانية دراسة الكلمة أفقياً حسب علاقتها و موقعها فى التركيب اللغوى. (١)

وبالطبع المستوى الأول (اللغة كنظام) هو نتيجة حتمية تدل عليها الأخذ بالمستويين الثانى و الثالث، فمادامت للغة قواعد و قوانين مُنَظمة، وهى قابلة للتطبيق فى صورة الاستخدام و الأداء اللغوى لفظاً أو كتابةً، فهى نظام مستقل قابل للتحليل و يمكن الاستفادة من نسقها فى مجالات علمية وثقافية أخرى كما كان النسق اللغوى هو الأساس للدراسة الحالة(المتزامنة)(*) فى الطرح البنيوى.

وليس اكتشاف اللغة كنظام و كبنية وليد المصادفة، و لم يتم فى قفزة واحدة، و لم يكن مجرد مطلب ثورى كرغبة فى التحديث، و إنما جاء كنتيجة حتمية لبحث و دراسة خصائص الصوت و الحرف الكتابى، إذ من أخص خصائص الحرف كتابة أو نطقاً الاختلاف و التميز عن غيره من الحروف، و كذلك بالنسبة لباقى عناصر اللغة من مفرد أو اسم أو جملة فالاختلاف هو جوهر اللغة و أساس المعرفة و الإدراك. (٢)

---

(١) ميجان الرويلى: "قضايا نقدية ما بعد بنيوية" النادى الأدبى بالرياض، ١٩٩٦م، ص(١٦، ١٧).

(*) تتخذ البنيوية من الدراسة الحالة أساساً لتحليل العلاقة بين العناصر المكونة للبنية المدروسة، بمعنى أنها لا تهتم بالتعاقب التاريخى أو لا تلتفت للأصل التى تنحدر منه العناصر بقدر ما تدرسها فى صورتها الراهنة فى حالتها الثابتة لترصد العلاقات التى بين العناصر، و ترصد التحولات من خلال تغير علاقات العناصر ببعضها من خلال الحقب المعرفية المختلفة .

(٢) المرجع السابق : ص (١٨).

لعلنا بهذا نكون قد كشفنا عن أسباب و طبيعة التحول الفلسفى من بحث نظرية المعرفة إلى دراسة نظرية اللغة، التى سوف تلعب بعد ذلك و للآن دوراً محورياً و أساسياً، ليس فقط على مستوى الدراسات اللغوية أو نظريات المعرفة أو مناهج التفكير، بل سينتشر و ينعكس النسق اللغوى ليخيم على معظم – إن لم نقل مجمل – المشهد الثقافى، و هذا ما سنتناوله الآن من خلال بحث علاقة التأثير والتأثر المتبادل بين اللغة (نظرية المعرفة) و بين حركة التحديث.

ب- التأثير المتبادل بين التحديث و(نظرية المعرفة) و اللغة:

هنا قد لا نستطرد كثيراً فى موضوع التطور الذى نال نظرية المعرفة و اللغة، حيث أننا سنبحثه فى النقطة التالية من هذا الفصل، و هذا لا يمنعنا من تسليط الضوء على بعض النقاط التى توضح طبيعة العلاقة الشائكة بين حركة التحديث و نظرية المعرفة و اللغة، و التى تمثل نقاط التأثير المباشر كلٌ منهم على الآخر، و لكن بمستوى و منهج تحليلى يختلف عن المستوى و النهج التاريخى المقارن الذى سيتناول بحث تطور البحث اللغوى كمحور أساسى لنظرية المعرفة.

و يمكن القول إن أثر التحديث على نظرية المعرفة يتمثل فيما يلى:

١. كان من نتائج الصحوة الحداثية و رفضها القاطع لكل ميتافيزيقا أن رفضت بالتالى الفلسفة المدرسية (فلسفة النسق الواحد) (*) فقضت بذلك على مبحث المعرفة، و انفرط عقد الكون الفلسفى هنا، من خلال فك عرى ثالوث

(*) نقصد بها فلسفات النسق الواحد و التى كان فيها الفيلسوف المادى مثلاً لابد و أن تكون جميع أرائه تتسم بالمادية فى جميع المباحث الفلسفية المعروفة وقتها (القيم، الوجود، المعرفة)، و نفس الشيء لو كان الفيلسوف مثالياً أو عقلانياً، و كان يطلق على هذه الفلسفات أيضاً اسم فلسفة القوالب الثابتة أو فلسفات المذهب الواحد .

الفلسفة المقدس(*)، إذ لابد من النقد العقلى الذى سيُخضع هذا الثالوث للنقد و الرفض، مما سيُحل النسبية محل اليقين، و على ذلك فلا توجد معرفة مطلقة بل نسبية، فقد صارت نسبية الأشياء و القيم و المعارف و جميع الثوابت و المسلمات أمراً يجمع عليه جميع رواد الحركة الحداثية، الذين طالبوا بضرورة إعادة النظر بالنقد فى كل المعارف السابقة (التراث)، و رفضوا كل المُسلمات و الأفكار التى أنتجتها الثقافة التى سيطرت عليها الميتافيزيقا، و طالبوا بالخروج عليها و التنكر لكل ما جاءت به، و ذلك لثقتهم بالمنهجية العلمية القائمة على التجريب، فتطلب ذلك إعادة النظر فى كل العلوم و المعارف الثقافية السابقة عليها.

٢. الصحوة التى أفسحت المجال لنقد و تطوير البحث اللغوى.

الصحوة الحداثية و إن كانت بدأت فلسفياً منذ أن أطلق (ديكارت) صيحته (أنا أفكر إذاً أنا موجود)، و ما تابع تلك الصيحة من ظهور مدارس فكرية و أدبية و نقدية – سبق ذكرها فى الفصل الأول –، كان من تبعات تلك الصحوة إعطاء الدفعة الأولى للعديد من العلوم و المعارف البشرية، و من بينها نظرية المعرفة. و من منطلق رفض الحركة الحداثية لكل ميتافيزيقا و مطالبتها بضرورة الأخذ بالمنهج العلمى، و نقد التراث و رفض هيمنة الكنيسة، كان على اللغويين كغيرهم الأخذ بمعايير التغيير و التطور و التجديد و الثورية، التى كانت من أهم أسس الحركة الحداثية، فكان لذلك الأثر و الفضل الكبير فى تطوير علم اللغة ليصل و يحتل تلك المكانة التى يشغلها الآن.

(*) كان الفيلسوف فى الفلسفة المدرسية ينظر إلى الكون على أنه ثالوث رؤوسه هى (الله و العلم والإنسان) و علاقة رؤوس هذا الثالوث ببعض هى التى تضمن ثبات حقائقه و استقرار .

و مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين أصبح يُنظر للنسق اللغوى على أنه "نظام قائم بذاته، و أنه بالتالى يقبل التحليل و الكشف. و لهذا وصل المتفائلون إلى القول بإمكانية تبنى أنموذج النظام الألسنى وتطبيقه على سائر الأنظمة المختلفة، و هكذا قالوا إنه بالإمكان دراسة الموضوعات التى تشكل تخصص معين، أو دراسة مختلف الموضوعات التى تتشكل منها الثقافة ككل بتطبيق آليات النموذج اللغوى. و على هذا لم تعد اللغة مقصورة على الكتابة و اللفظ ؛ بل أصبحت تطبق على كافة مؤسسات الثقافة و أنظمتها و أنماطها".(١)

نعم نحن نسير مع الحداثة نحو (النسق اللغوى للبنيويين) لأن نظريتهم عن عدم وجود مرجعية لجميع اللغات، يقصد بها فك معضلة (الخارج / الداخل)، و تخطى نظرية ازدواج الحقيقة أو المعرفة، و تفسير إبداعية اللغة من خلال خصائصها الشكلية لبنائها ذاته. (٢)

"و تكمن أهمية ذلك فى أن تعريف الوحدة من الناحية الشكلية يعتمد أصلاً على مكوناتها. فشكل أية وحدة هو العناصر التى تكونت منها فى أدنى مستوياتها (الصوتيم)(*)، بينما يتحدد معناها من قدرتها على الانتقال و الدخول فى مستويات نحوية / قواعدية أعلى... و هذا هو الأنموذج اللغوى اللسانى و تكمن أهميته بالنسبة لغير اللغويات فى أن ما ينسحب عليه ينسحب على غيره، إذ يمكن تطبيق هذا النموذج على بنى أخرى و بالتالى تحليل أية

---

(١) ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (١٨).

(2) Art Berman ," From the New Criticism to Deconstruction" Urban , U of Illinois P,1988 p. (40).

(*) هو أصغر وحدة يتكون منها الصوت المنطوق لغوياً مثل الأسماء المنطوقة أو الأفعال أو الصفات .

بنيـة إلـى مكوناتهـا الأصـغر فالأصـغر حتـى يصـل التحليـل إلـى أصـغر وحداتها".[١]

إذن أخذت الحداثة بالنموذج اللغوى ليكون تطبيقه هو معيار التقدم و التطور (التحديث) وعلى هذا أضحى النموذج اللغوى هو أحدث صيحة، و موضة العصر على شتى مستويات الفكر والفن و النقد، وغيرها من ألوان الثقافة و العلوم الإنسانية.

وتكمن أهمية النموذج اللغوى بالنسبة للنقد الأدبى "فى خاصية اللغة الأفقية التى تعتمد فى أساسها على خصائص اللغة الاندماجية و التوزيعية، و الخاصية الاندماجية تعنى انتقال المورفيم[*] (**Morpherom**) من المستوى التوزيعى إلى مستوى أعلى حتى يؤدى وظيفته النحوية، بينما تقوم الخاصية التوزيعية على تحليل مكونات الوحدة اللغوية عند مستوى واحد دون الانتقال إلى مستوى أعلى... لأن معناها يتحدد عن طريقين : من خلال موقعها و خصوصية هذا الموقع فى التركيب، ثم من خلال علاقاتها بغيرها من العلامات و الوحدات النحوية القواعدية التى تحكم بنية الجملة. إلا أن هذا التركيب الأفقى وحده لا يفسر دلالة و معنى الكلمة، بل إن معناها يقتضى أيضاً بعداً لغوياً آخر، و هو البعد العمودى و مكونات البعد العمودى لا توجد فعليا فى التركيب اللغوى، لكن لأن هذا البعد يعتمد على الاستبدال الانتقائى فإنه يحكم دلالة الكلمة و وضوحها ".[٢]

---

(١) ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٢٤).

(*) هو أصغر وحدات اللغة كالكلمة أو حرف الجر أو أداة الوصل أو مصطلح مكون من أكثر من كلمة .

(٢) المرجع السابق : ص (٢٤، ٢٥).

ومن تعقيد النموذج اللغوى تستمد الحداثة سماتها كنظرية نقدية، بل و تستمد منه أيضاً مصطلحاتها (مثل التغييب و المرادفة و التضاد)، فنجد لغوياً أن اختيار "أى كلمة يعتمد على ((تغييب)) غيرها، فهى حينما تتحقق فى موقع معين من تركيبة الجملة فإن تحققها و اختيارها دون سواها يقتضى استبعاد غيرها من الإشارات و العلامات، التى كان من الممكن أن تحل محلها مكانياً و نحوياً و دلاليا (مبدأ المرادفة و التضاد)". [١]

و من التقابلات الضدية يبرز لنا سبباً آخر يُعد من خصائص اللغة، ليجعل الحداثة تعدُها النموذج الأمثل، الذى على باقى العلوم الإنسانية أن تحذو حذوها، فالتقابلات الضدية تعد قاسماً مشتركاً بين الفكر البشرى عامة و بين اللغة، و هذا ما جعل سوسير يقول : "يمكن تشبيه اللغة بورقة، وجهها الفكرة و ظهرها الصوت، لا يستطيع المرء أن يقطع الوجه دون أن يقطع الظهر فى الوقت ذاته... اللغة نظام من الإشارات التى تعبر عن الأفكار... إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر و الصوت "[٢] "و لئن كان الوصل بين الفكر و صورته أمراً تقتضيه التقابلية الضدية التى تفضى إلى إدراك الأمور وتمييزها فإن هذه التقابلية لا تقتصر فقط على التمايز العمودى و العلاقات الأفقية، بل إن السمة التقابلية تنسج البناء اللغوى بأكمله... لأن مثل هذه الضدية تكاد أن تكون صيغة كل بنية ابتداءً بالصوتيم و انتهاءً ببنية الفكر و الثقافة ".[٣]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٥).

(٢) عن المرجع السابق : ص (٢٦).

(٣) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٢٦، ٢٧).

يتضح مما سبق إلى أى حد تأثرت الحداثة باللغة، و استفادت من نجاح النموذج اللغوى سواء على مستوى العلوم الإنسانية و الثقافة و الفن و الأدب، أم على مستوى المنهج و النظريات النقدية التى تشكل موجة الحداثة و ما بعدها، فلا يخفى على أى باحث متخصص مدى تغلغل النموذج اللغوى، بل و كونه الدعامة الأساسية لكل من الشكلانية أو البنيوية أو الظاهراتية أو نظرية التلقى أو التفكيك، فجميعها تعمل على النموذج اللغوى و تتشكل حسب تحولات النظرة إلى اللغة، و كأن الحداثة أصبحت تابعاً منهجياً و فكرياً للنظرية اللغوية – قد لا يتفق معنا الكثيرون فى هذا الرأى، و قد يعده البعض غريباً، و لكن ثمة الدليل على صدق ذلك، إن السبب فى تساقط أولى أوراق الحداثة (الشكلانية و البنيوية) هو نفسه سبب ظهورهما (إتباع النموذج اللغوى)، أليس سبب ترك الشكلانية و البنيوية و سقوطهما راجع إلى فشلهم كنظريات نقدية للأدب، فى تحقيق المعنى فى الشعر، و تحقيق علمية النقد و الأدب. و العلمية هى من إنجازات و شعارات علم اللغة التى روجت لها الحداثة، مع أو قبل النسق اللغوى أما المعنى فهذا واضح أنه من أخص خصوصيات علم اللغة.

"نعم : إن للأنموذج الألسنى قدرته الفعالة على التحليل و رد البنى إلى مكوناتها الأولى... لكن تبقى هذه المنهجية عاجزة عن تفسير أو توثيق أدبية أو لا أدبية كثير من مكونات القصيدة... فمن السهل تصنيف أى مادتين على أنهما بنية تضادية ثنائية، لكن من الصعب إيجاد الدلالة أو القيمة التى تنجم عن هذا التضاد القطبى ".[1]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٩، ٣٠).

و لا ندرى كيف لم ينتبه رواد الحداثة إلى هذا الخطأ الفادح الذى طال نظريتهم النقدية و الأدبية، سواء فى المحاولة البنيوية أو حتى مع التجربة التفكيكية ؟، لقد كان أجدر بهم نقد و تفكيك النموذج اللغوى قبل اعتماده كنموذج أمثل صالح للتطبيق على مجمل الفكر و الثقافة الإنسانية.

فإذا تمكننا من نقد النموذج اللغوى، من حيث صلاحيته للتطبيق فى مجال النقد الأدبى والأدب و غيرهما من المجالات الفكرية و الثقافية، فسوف نسجل فقط ملاحظتين قد يجعلا هذا التطبيق مستحيلاً أو سيؤدى تطبيقه حتماً للفشل. فكيف بعباقرة و فلاسفة و مفكرى حداثة القرن العشرين أن يجيزوا مثل هذا النموذج ليزجوا به و بأنفسهم إلى الهاوية ؟

و أولى تلك الملاحظات وجود مناطق غامضة فى النموذج اللغوى المعاصر، نعدها مناطق تمركز للميتافيزيقا، مثل (أسبقية وجود اللغة على الأشياء) هى مقولة ميتافيزيقية لعدم وجود دليل على ذلك سوى رد اللغة إلى الأثر الأول و الاختلاف، و هذا يمكن الرد عليه و تفكيكه، لأن الواقع يثبت أن مرد و مرجع الأثر الأول لابد و أن يكون موجوداً قبل اللغة، و هو فى نفس الوقت أثر لشىء كائن موجود وهذا يثبت وجود الأشياء قبل اللغة، و الاختلاف الموجود أصلاً بين الأشياء الموجودة قبل أن ندركها، هو الذى يمكننا من تمييزها عن بعضها و يجعلها متميزة فى حد ذاتها، و بهذا يكون اختلاف الموجودات هو الذى تطلب لمعرفتها نسقاً يحمل من الاختلافات ما يعبر عن اختلاف هذه الموجودات، و هذا الاختلاف واضح بنفس الكيفية فى نسق الأفكار و الصور الذهنية عن هذه الموجودات.

ومن الموضوعات الغامضة أيضاً علاقة الأفكار باللغة، إذ كيف يمكن تفسير التشابه بين نسق الأفكار من حيث التمايز والاختلافات والترتيب، و بين النسق اللغوى ؟

فنجد أن "النظام اللغوى هو سلسلة من الفروق الصوتية ترتبط بسلسة من الفروق فى الأفكار"[1] أى أن الأفكار تأخذ الصفات اللغوية، فكيف بعد ذلك نقبل المقولة التى تؤكد أن علاقة الدال بالمدلول علاقة اعتباطية بهذا المفهوم الذى يسمح بالفصل التام بينهما "و سواء أخذنا المدلول أو الدال فإن اللغة لا تملك أفكاراً و أصواتاً لها وجود قبل النظام، و كل ما تملكه هو الفروق الفكرية و الصوتية التى نبعت من النظام، فالفكرة أو المادة الصوتية التى تحتوى عليها الإشارة أقل أهمية من الإشارات الأخرى المحيطة بهذه الإشارة "[2].

فالارتباط هنا ليس طبيعياً و إنما ارتباط عرفى و اصطلاحات أُتفق عليها، بدليل الاشتقاقات اللغوية الجديدة التى نُدرجها على لغتنا كل فترة.

أما الملاحظة الثانية لنا على النموذج اللغوى فهى أنه منذ البداية كان واضحاً فى أنه عقيم لا يُوَلد معنى و لا يُنتجه، بل فقط هو نسق يهتم بالشكل و بالهيكل الرياضى للعلاقات بين عناصر البناء، و هو يصلح فقط فى التحليل و البناء و التفكيك، ولا يعبأ بالمعنى و لا بكيفية صدور المعنى، مما يعنى فشله بداية على المستوى اللغوى فكيف يمكن تطبيقه على الأدب أو النقد، ربما ظن رواد الحداثة أنه قد ينبت أو ينتج فى أرض غير التى خرج منها، و أنى له هذا و هو لم ينفع نفسه (على مستوى علم اللغة المعاصر).

فالمنهج العلمى و النسق الرياضى المستخدم فى علم اللغة، جعلهم لا ينتبهوا إلى فشل هذا النموذج فى إنتاج المعنى الحقيقى، أو لم يتنبهوا إلى أن هذا النموذج عاجز عن تفسير الكيفية التى يصدر بها المعنى عن النصوص.

---

(١) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام " ص (١٣٩).

(٢) المرجع السابق : ص (١٣٩).

وها هو سوسير يقول : "إن أى جزء من اللغة لا يمكن فى أساسه أن يعتمد على أية فكرة سوى عدم التطابق بينه و بين غيره، فالاعتباطية (العشوائية) و الاختلاف... صفتان متلازمتان"[١] و بعد ذلك يؤكد بوضوح أن "اللغة هى شكل و ليست مادة ".[٢]

وإذا كنا قد استوفينا بحث هذه النقطة، فى عرض محايد لعلاقة حركة التحديث بنظرية المعرفة (اللغة)، فلنتوجه الآن لبحث التطور الذى طرأ على اللغة من جراء عملية التحديث.

ثانياً : مراحل تطور تناول اللغة كمحور أساسى لنظرية المعرفة :

يمكن القول بأن الكشف عن جذور الحداثة، يمكن أن يتم من خلال تطور اللغة، عبر ثلاث مراحل تُعد أهم مراحل تطور علم اللغة.

أ ـ مرحلة الرمزية (Symbolism)

جاءت المدرسة الرمزية بالثورة على جمود اللغة، مطالبة بلغة جديدة بدلاً من تلك التى استهلكت من كثرة الاستخدام، وعلى هذا ظهرت العديد من الاتجاهات الأدبية و الفنية و النقدية، – كما مر بنا فى الفصل الأول – و كانت ثورية الرمزية سبباً لريادتها لجميع تلك الاتجاهات الأدبية حتى معارضيها، و على مستوى اللغة يرجع الفضل للرمزية فى كشفها و حصرها لمشكلة اللغة[*]، و ابتداعها للغة الشعرية، و بثها للغموض فى استخدام اللغة؛

---

(١) المرجع السابق : ص (١٣٩).

(٢) المرجع السابق : ص (١٤٠).

(*) جاءت الرمزية بعدما سئم الرومانسيون من اللغة المستهلكة، فحدد الرمزيون مشكلة اللغة بأن ألفاظها قد فقدت قدرتها على التعبير عن المعنى من كثرة الاستخدام، و لهذا كان عليهم الأخذ بمبدأ الرمزية (استخدام الرموز و الإيحاءات) للتعبير عن معان جديدة و صور ومشاعر وأحاسيس جديدة تُعد أكثر غنى من اللغة بمفهومها السابق(الذى كان فيه الدال= =مدلوله

حيث استخدمت الكلمة بصورة رمزية للتعبير أو الإشارة إلى تجربة شعُورية أو صورة خيالية أو أسطورية، جميعها تتصف بالذاتية (ذاتية الشاعر أو الفنان أو الكاتب)، أى أن الرمزية هى التى تولت تخليص اللغة من جمود و تسلط تعاليم الكنيسة و الميتافيزيقا.

"و الملاحظة الموضوعية هنا هى أن الرمزيين –على وجه التحديد– هم الذين طرحوا على النحو الأكثر وضوحاً التأكيد الجديد على القيمة الجوهرية للكلمة الشعرية. و النظر إلى الكلمة على هذا النحو يعنى أنها إشارة لشىء وراءها... إن هذه القيمة عند الرمزيين هى من نوع خاص. فالكلمة الشعرية هى رسم بارز لفكرة عن سر أو أسطورة... و هو تعبير أكثر خصوصية، و غالباً ما يكون أكثر غرابة كذلك عن استخدام أكثر عمومية – و أكثر قدماً أيضاً – "(١).

وحتى نهاية المرحلة الرمزية لما يزل المنهج التاريخى هو منهج دراسة اللغة، حتى على مستوى الكلمة و اللغات بغية الوصول لأصل الكلمة و مصدر اللغات، مما نتناوله بعد المرحلتين التاليتين.

المُحدد، و هذا خلاف موقف الشكلانيين من اللغة فهم يرون أن المعنى يتولد من اختلاف علاقات وحدات اللغة ببعضها، فشكل هذه العلاقات هو الذى يحدد المعنى وهم يطالبون بلغة أدبية قد تتصف بالعلمية من خلال التمسك بالقواعد النحوية للغة، فالشكلانوين إذ يسعون إلى تحديد المعنى و كشف غموضه هم على عكس الرمزين الذين يسعون إلى أسلوب جديد للتعبير عن المعنى الغير مباشر .

(١) رايموند ويليامز " طرق الحداثة ضد المتوائمين الجدد " ترجمة فاروق عبد القادر، سلسة عالم المعرفة العدد (٢٤٦)، الكويت، يونيو ١٩٩٩م، ص (٩٨).

والجدير بالذكر هنا أن الرمزيين هم أول من طالب بلغة شعرية تتعمد الغموض، و هى نفسها التى تملأ شعارات الحداثة من خلال الميتالغة (**Meta - Language**) أو اللغة النقدية.

و لمعرفة أثر ما فعله الرمزيون باللغة "نستطيع أن نمضى الآن لنر ((انبعاث)) أو ((تحرير)) الكلمة عند الشكلانيين، من حيث هى نزع الغموض عن الكلمة الشعرية و علمنتها، لإزاحة ما فعله الرمزيون بها. إن ما تم اقتراحه كبديل كان ((لغة أدبية)) خاصة، لكن تعريفها الآن يتم باعتبار الكلمة مادة صوتية تجريبية... هكذا لا تصبح الكلمة الشعرية مجرد وحدة نحوية، لكنها ستصبح ما يمكن تسميته ((صورة صوتية متحولة أو انتقالية)) ".[١]

و لا يفوتنا هنا ملاحظة مهمة تُعد نقداً منهجياً للتفكيك[*] عند دريدا، حيث الميتالغة عنده وليدة استقلال اللغة كنظام – عن فكرة سوسير اللغة كنظام و مجموعة قواعد و اللغة الأداء – و بما أن اللغة النقدية عند دريدا جذورها ترجع للغة الشعرية عند الرمزيين، و من بعدهم اللغة الأدبية عند الشكلانيين، و هم أول من أطلق سراح الكلمة الشعرية من حرفية القواعد النحوية حتى "لا تصبح الكلمة الشعرية مجرد وحدة نحوية "، فكيف يستقيم فكر دريدا عن استقلال اللغة النظام و هو ما يعنى خضوعها لقواعد و قوانين و إمكانية الاشتقاق و التطبيق مع قوله بالميتالغة ؟ و هى لابد و أن تشذ عن تلك

---

(١) المرجع السابق : ص (٩٩).

(*) التفكيك هو استراتيجية نقدية تقوم على إبراز ما يتضمنه النص موضوع النقد من أفكار متناقضة، يكشف الجمع بينها فى نفس النص عن زيف الميتافيزيقا التى يتأسس عليها النص وتسعى لتثبيت معنى مُحدد يتفتت فور إبراز متناقضات هذا النص، ثم يقوم الناقد التفكيكى بقلب معطيات أحد المتناقضات ليؤسس معنى جديداً مغايراً تماماً للمعنى الأول الذى قد يكون قصده المؤلف، و فى النهاية يصبح هذا المعنى الجديد (أو النص الجديد) عرضة من جديد لتفكيك أى قراءة جديدة، راجع عبد العزيز حمودة : "المرايا المحدبة" ص ص (٢٩١– ٤٠١).

القواعد، أو علينا أن لا نأخذها بتلك القواعد النحوية بل نتعامل معها كدلالات بلاغية و مجازية، و فى هذا أحد الأمرين إما الاعتراف بميتافيزيقا تلك الميتالغة أو بتناقض فكر دريدا، و نظن أنه فى أى من الحالتين سيؤدى حتما لتفكيك و هدم هذا الفكر.

أما على مستوى نتائج اختلاف نظرة الرمزيين و الشكلانيين للغة، فنجد أنه بالرغم مما يمثله تناقض وجهتى نظر الرمزيين والشكلانيين إلا أنه يمكن استخلاص عنصراً أساسياً يجمعهما، هو انطلاق الطرفين (الرمزية و الشكلانية) من رفضهم للوضع المتردى للغة، و المطالبة بتطوير اللغة لتكون على شرط (أى على شاكلة) الموسيقى، يكون فيها الحضور مباشر – كالصور المرئية – فى الأداء اللغوى. (١)

وهذا لا يعنى سوى البحث عن لغة تعبيرية تجسد انطباعات و صور روحية و حالات شعورية أكثر بكثير مما تتلفظ به (وحدات اللغة). فالرمزيون كانوا ينشدون القصائد الصوتية (الإيقاعية الموسيقية) والمسرحيات الانطباعية بلغة (فونغرافية)(*).

---

(١) المرجع السابق : ص (١٠١، ١٠٢).

(*) المقصود باللغة الفونغرافية أن تُجسد وحدات اللغة حالات شعورية ، و انطباعات و تُولد أحاسيس لصور حسية لا يمكن الإمساك بها من خلال المعنى الحرفى للقصيدة أو المسرحية ، وهذا الأسلوب فى التعبير يذكرنا بأسلوب الكاتب المصرى العالمى المعاصر(نجيب محفوظ)، و المخرج السينمائى المصرى العالمى المعاصر (يوسف شاهين) ، و إن كان يأخذ فى تطبيقه أحدث تقنيات الحداثة فى مراوغة و لانهائية المعنى ، و لكنه يلتزم بأسلوب (الفونغرافية) كأسلوب لإبراز المعنى المتقطع (أو قطع المعنى) ، الذى يدعو المتلقى أو المشاهد ليشارك فى تركيب و تكوين المعنى بالشكل الذى ينعكس داخله وقت تلقيه تلك اللقطات الانطباعية .

وواضح أن تلك التطورات جاءت كنتائج متأخرة قليلاً عن المرحلة الرمزية فبالرغم من "أن أبولينير[*] كان يناجى ((الإنسان الباحث عن لغة جديدة، التى لا يستطيع أى نحوى فى أى لغة أن يقول شيئاً عنها...))، و برغم أنه تطلع إلى الزمن ((الذى يصبح فيه الحاكى – الفونوغراف – و السينما أشكال ((الطباعة)) الوحيدة المستخدمة، و سيعرف الشعراء حينذاك حرية لم يعرفوها حتى اليوم...)) إلا أنه من جانبه استمر يمارس التأليف المكتوب، حتى أرتو[1] – فى مراحل تطوره الأخيرة – ظل يكتب، حتى لو صدقنا زعمه بأنه يكتب للأميين (بلهجة رجل الشارع)... و هى مبادرة استمرت فيما بعد، و فى بعض الوجوه تم تعميمها، و للمفارقة الساخرة : حتى فى السينما التجارية".[2]

ولا يخلو الطرح الرمزى للغة من التناقض الراسخ ضمناً فى أسس الحداثة، فنجد التناقض فى (الشرط المعاصر) و علاقته المحايدة باللغة "حيث إن الرمزيين – على سبيل المثال – يرون أن ما نسميه ((الشرط)) ليس معاصرا لكنه دائم، و إن كان يزداد حدة فى ضوء أزمات زمانهم. و هذا على نحو عارض طريقة – و إن كانت لا تخلو من تناقض – يتميز بها الرمزيون داخل إطار أساسى للحداثة. إن طريقتهم فى كتابة شعرهم كانت جديدة... تتطلب أقداحاً جديدة للنبيذ الجديد... فالقوام المثالى للرمزية هو الاعتقاد بأن العالم الذى ينتقل عن طريق الحواس – لكنها هنا كل الحواس، و على نحو أكثر عمقاً، فى لون من التزامن الحسى – يجب فهمه على أنه

(*) أبو لينير جليوم (١٨٨٠ – ١٩١٨ م) شاعر فرنسى، بولندى المولد مهدت آثار لظهور السريالية .

(١) آرتو أنطونين (١٨٩٦ – ١٩٤٨ م) شاعر سريالى و ممثل و ناقد مسرحى فرنسى.

(٢) المرجع السابق : ص (١٠٢).

يكشف عن عالم روحى. و القصيدة الرمزية شكل يمكننا من هذا الكشف، إنها نمط من ((التراسل)) المتحقق بالمعنى الذى قصده بودلير(*)، و فيه تصبح ((الكلمة الشعرية)) رمزاً لفظياً، هو – فى الوقت ذاته – مادى من حيث التجسيد، ميتافيزيقى من حيث كشفه لحقيقة روحية ما تزال حسية معاً".(١)

و على هذا نجد أن "هذا المفهوم يرتبط – لغوياً – بفكرة ((الشكل الداخلى)) للكلمة، أو فى الحقيقة قدرتها الإبداعية الداخلية... و كان يتدعم بالفكرة السائدة عن ((الأشكال الداخلية)) المتميزة للغات التى تنسجم مع الحياة الداخلية للناطقين بها... هذا ((الشكل الداخلى)) كان يجب – إن جاز التعبير – أن يُكشَف و يُحَرر و يُجَسد فى ((الكلمة الشعرية))... داخل هذا المفهوم كله يمكن القول إن هناك بالفعل شحنة ميتافيزيقية و تاريخية متميزة. هى متميزة و لكنها فى الممارسة يسودها – عادة – الخلط و الاضطراب. ذلك أن القصد ميتافيزيقى لكن المناسبة ستظل تُعرّف على أنها الأزمة ((المعاصرة)) أو – بالمفهوم الواسع – ((الحديثة)) فى الحياة والمجتمع".(٢)

و مما سبق يتضح أهم سمات الرمزية فى تناولها اللغوى من خلال الكشف الشعرى، الذى يمزج بين الخبرة الراهنة التى يودعها و يُبدعها الشاعر – من خلال الشحنة الرمزية – و هى تقوم على التزامن الحسى، و بين التراث الذى لا يمكن نسيانه و الذى كان قابعاً خارج الزمن، من خلال الالتزام بتقاليد النوع الأدبى العام، "و بقيت صياغات عديدة لهذا الشكل من الممارسة مهمة فى كثير من الأعمال التى لا تحمل رسمياً العلامات المميزة للرمزية من حيث هى حركة تاريخية قابلة للتحديد. فهى واضحة مثلاً فى

(*) شارل بودلير (١٨٢١ _ ١٨٦٧م) شاعر فرنسى تميز شعره بتناول الموضوعات الإباحية .

(١) المرجع السابق : ص (١٠٢، ١٠٣).

(٢) المرجع السابق : ص (١٠٣).

قصائد ييتس[1] البصرية و الأسطورية، و على نحو مختلف عند إليوت[2]، الذى يعتبر عادة – فى الإنجليزية – نموذج الشاعر الحداثى، لكن بالنسبة لهذا الجانب و كما لجوانب أخرى، يمكن تعريفه بدقة أكثر، و بمعنى مثالى و تاريخى معاً، أنه نموذج للقديم و الحديث معاً".[3]

كانت تلك المرحلة (الرمزية و الشكلانية) و هى أولى مراحل تطور البحث اللغوى، حيث كانت بداية تعكس أثر صحوة عقلية أخذت بأسس التحديث فى مرحلة الطليعة.

والآن نتجه بالبحث نحو المستقبلين الذين سيرفضون أى أثر للتراث، من أجل دخولهم مرحلة الحداثة لكى نرصد الانفصال العميق فى الفكر الغربى عامة و فكر الحداثة خاصة، و ذلك أيضاً يتم من خلال أسس المدرسة الرمزية التى ترى ضرورة النقد و المعارضة و الاختلاف و لو معها من أجل بلوغ التجديد، فيجد المستقبلون الظروف مواتية تماماً "لأن ((اللغة الأدبية))، و مجمل نشاطات الأدب و ممارسته القائمة، هى التى تُمثل الأغلال التى يتعين على رواد ذلك الزمان الجديد أن يحطموها. فليس الشكل الداخلى للكلمة هو ما يحلمون به، بل ((حرية)) الكلمات".[4]

ونود هنا أن نشير إلى محاولات فردية سعت لتحرير الكلمة تعد سابقة للمرحلة البنيوية و منها على سبيل المثال "استخدام خليبنيكوف[*] (**Khlebnikov**) فى دراسته فى التاريخ اللغوى للكلمات يقترح من خلاله شكلاً

---

(١) ييتس وليم بتلر(١٨٦٥-١٩٣٩م) شاعر وكاتب مسرحى إيرلندى، مُنح جائزة نوبل عام١٩٢٣م

(٢) إليوت . ت . س (١٨٨٨ _ ١٩٦٥ م) شاعر و ناقد إنجليزى، من أبرز ممثلى الشعر الحر.

(٣) المرجع السابق : ص (١٠٣).

(٤) المرجع السابق : ص (١٠٤).

(*) فيليمير خليبنيكوف (١٨٨٥ _ ١٩٢٢م) شاعر روسى نادى بضرورة إنزل الشعر إلى مستوى لغة الشارع .

من التحرر فى أشكال لفظية جديدة، مثل قصيدته المشهورة ((تعويذة للضحك))، حيث يقوم التأليف كله على سلاسل من التنويعات على الكلمة الروسية ((سيمخ **Smekh**)) التى تعنى الضحك".[١]

ولا يفوتنا التنويه هنا على أننا إذا ما ربطنا بين حديثنا هذا حول المرحلة الرمزية، و بين حديثنا السابق عن المدرسة الرمزية فى الفصل الأول، و كل ما أفرزته من اتجاهات أدبية – لأدركنا أن للرمزية الأثر المباشر أو الغير مباشر فى ظهور تلك الاتجاهات – و نحاول الآن رصد الكم الهائل الذى أثرت به الرمزية على فكر الحداثة النقدى و الأدبى و على مستوى تحرير اللغة الأدبية فيما بعد.

ب- المرحلة البنيوية (Structuralism) [٢]

تبدأ مرحلة (الحداثة) عقب بلوغ البحث اللغوى القمة على يد عالم اللغة السويسرى (فرديناند دى سوسير) [٣] الذى استبدل المنهج التاريخى المقارن القديم بالمنهج الرياضى التحليلى الوصفى لدراسة الظاهرة اللغوية، فنجد البحث

---

(١) المرجع السابق : ص (١٠٤)، و للمزيد عن تلك المحاولات و تاريخ تطور اللغة، راجع د / محمود فهمى حجازى : " أصول البنيوية فى علم اللغة و الدراسات الاثنولوجية" مقال فى مجلة عالم الفكر المجلد الثالث، عدد (١) أبريل – يونيه عام ١٩٧٢ م، ص ص (١٥١ _ ١٨٠).

(٢) تُعد المرحلة البنيوية أهم مراحل تطوير الدراسات اللغوية، فبعد التحولات التى رسخها فرديناند دى سوسير أصبح ينظر للغة فى البنيوية على أنها مجموعة من العلاقات (النسق) التى بين العناصر، و أصبح ينظر للغة على أنها بناء مستقل عن مستخدميها، و انفصل الدال عن مدلوله و فقدت اللغة مركزيتها و مرجعيتها.

(٣) هو فرديناند دى سوسير عالم لغة سويسرى و له الفضل فى إحداث تحولات مهمة أدت لتقدم الدراسات اللغوية، ولد فى جنيف (١٨٥٧ _ ١٩١٣م) و بعد وفاته قام أحد تلامذته بجمع و نشر محاضراته فى اللغة عام ١٩١٦م.

اللغوى و قد تحول مساره تماماً، بل و تغيرت على يده مفرداته، و تعددت و جُددت مصطلحاته و معطياته، و بالطبع كان لكل هذا نتائجه الهائلة التى أفرزت الحداثة و امتدت لتؤدى إلى ما بعد الحداثة. بالفعل إنها كانت وثبة نوعية على مستوى الفكر الغربى و المشهد الثقافى منذ بدايات القرن العشرين، و لكن ظروف الحربين العالميتين هى التى أخرت ظهور أولى نتائج تلقيح الفكر الغربى بأفكار سوسير ليطالعنا منتصف القرن العشرين بميلاد البنيوية (سواء الماركسية منها أم الغربية) كما سنرى هذا بالتفصيل فى الفصل الثالث، المهم الآن هو رصدنا لأهم إنجازات البحث اللغوى على يد (فردينان دى سوسير)، و هى عديدة و لكننا نحاول حصرها فى الآتى :

١. نقد سوسير المنهج التاريخى المقارن المستخدم من قبله لدراسة اللغة و جزئياتها، لأن هذا المنهج كان جزئياً لا ينظر للغة كنظام متكامل ؛ بل كان يبحث تاريخ تطور جزئياتها، و لأنه كان يبحث اللغة على أساس عبارات الأفراد المنطوقة و المستخدمة و المدركة إدراكاً مباشراً، و يرى سوسير أن هذا ليس بحثاً للغة ككل لأن اللغة ليست مجموع الجمل أو الأجزاء بل هى أشمل و أعم فهى التى تربط بين كل هذا، و لهذا أوضح ضرورة استخدام المنهج الوصفى لدراسة بنية اللغة أفقياً فى وضعها الآنى (الدراسة الحالة التى تمكننا من وصف مكوناتها)، و ميز بينه و بين الدراسة الطولية فى المنهج التاريخى الذى يهتم فقط بتطور مشتقاتها تاريخياً[١]، ثم المنهج الرياضى لتحليل و رصد علاقات العناصر المكونة للبنية و بحث قواعد و قوانين تلك العلاقات.

---

(١) محمود فهمى حجازى : " أصول البنيوية فى علم اللغة و الدراسات الانثولوجية " ص (١٥٨، ١٥٩).

٢. انطلق سوسير فى بحثه للأساس النظرى للغة من تمييزه بين ثلاثة معطيات كانت مختلطة عند سابقيه، و هى (١) اللغة النظام (كنظام قائم مستقل)، (٢) الكلام أو الأداء اللغوى (طرق استخدام اللغة كأداة للتعبير و التواصل)، (٣) قدرة الإنسان على امتلاك القواعد و القوانين التى تمكنه من استخدام اللغة (اللغة كملكة إنسانية)، و من منطلق هذا التمييز كان تركيز سوسير منصباً على (اللغة النظام). (١)

و من بعده جاء أقطاب الحداثة ليركزوا على النسق اللغوى، و نظام البنية، و بحث العلاقات بين عناصر البنية، و ربما كان هذا سبباً فى إخفاقهم (من حيث اهتمامهم بالنظام و البنية مما أدى بهم إلى إهمال كيفية تولد المعنى)، فقيل إنهم حققوا العلمية على حساب غياب المعنى الحقيقى، أو جمود المعنى فى الحيز الذى يحصرهُ فيه النسق، و كيف يكون هذا مقبولاً فى الأدب أو النقد الأدبى ؟، و من بعدهم جاء أقطاب ما بعد الحداثة الذين فككوا هذا النظام ليبقوه فقط فى الكتابة الأصل، التى هى الأثر مُشَكَلاً بالاختلاف، ليصلوا بنا إلى مراوغة الدوال لمدلولاتها، و لا نهائية المعنى و زيف الحقيقة و فوضى التفسيرات، و كيف يكون الأدب و النقد فى ظل لا نهائية القراءات التى تُخَطِيء كل قراءة بالقراءات الأخرى ؟، و فى الوقت نفسه تكون مقبولة إلى أن تفككها مقاربة أو قراءة جديدة.

٣. فكك سوسير عروة العلامة، بأن شق بين وجهى العملة (العلامة) فأصبحت علاقة الدال بالمدلول هى علاقة (اعتباطية عشوائية)، خارجاً بذلك على سابقيه و على مجمل التراث الفكرى الغربى، الذى كانُ يقر بعرفية و

---

(١) المرجع السابق : ص (١٥٨، ١٥٩).

اصطلاحية علاقة تلازم الدال بمدلوله، فكانت الكلمات تعكس صورة الأشياء الخارجية، فى ربط يشبه وجهى العملة (أحد الوجهين دال و الأخر مدلول)، و بهذا أصبحت الدلالة عملية عشوائية[1]، و إن كان سوسير نفسه يرى و يقر بأن علاقة العلامة بمرجعها الخارجى هى علاقة عُرفية (بحسب اتفاق المجتمع)، ضمن نظام مؤسساتى معين يُوحد و يَربط العلامة بمرجعها الخارجى، كوجهين لورقة واحدة(*)، و هذا سوف يكون له أخطر الأثر على المدى البعيد، إذ سيؤدى إلى اهتمام البنيويين بالدال و بنيته على حساب المدلول، و كذلك القول بتعدد و بلانهائية المعنى فى مرحلة ما بعد الحداثة، و هذا لا يُحَمْل سوسير تبعات ذلك عند البنيويين و رواد ما بعد الحداثة ؛ إذ سبق و بيننا فى متنً سابق من هذا الفصل إقرار سوسير نفسه بالتشابه الشديد بين بنية اللغة و بنية الأفكار، حيث يرى علاقتهما كعلاقة وجهى العملة الورقية لا يُمزق وجه واحد فقط بل يتمزق الوجهين معاً. [2]

وهذا يطرح سؤالاً هاماً ؛ هل أخفق رواد الحداثة و رواد ما بعدها فى فهم سوسير ؟ أم أنهم أخذوا عنه ما يريدون فقط لينسبوه إليه بعد نجاح مشروعه اللغوى، أم أن كتابات سوسير من الغموض المتعمد بحيث تحتاج حقاً لعمليات التفكيك التى أجراها دريدا على بعضها. و ربما كان هذا كله، ولكن الثابت عنه زيادة الاهتمام باللغة كنظام و لكنه لم يهمل بحث اللغة كأداء أو اللغة كملكة و قدرة إنسانية.

---

(١) ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٢٣).

(*) المرجع السابق : ص (٢١) .

(٢) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام " ص (١٣٩).

٤. أوضح سوسير الطبيعة النفسية لكل من الدال و المدلول، و رمزية اللغة بشقيها اللذين لا يعمل على إنتاجهما سوى الاختلافات التى تميز كل رمز عن الآخر، على مستوى الدال و المدلول، فنجد أن "الرمز اللغوى ذو طبيعة نفسية، أى أنه مستقر فى عقل أبناء البيئة اللغوية. ووجوده لا يرجع إلى كونه مدركاً بالوسائل المذكورة، بل إلى أن أبناء البيئة اللغوية قد اعترفوا به اعترافاً يجعلهم يستجيبون للرمز الواحد نفس الاستجابة، و شأن اللغة هنا شأن كل الأنظمة الرمزية مثل الطقوس و المراسم و النداءات العسكرية... و تشترك كل الأنظمة الرمزية فى أن للرمز ((Signe)) جانبين. أولهما : الرمز الدال ((Signifiant)) و هو التعبير أو اللفظ أو الشكل الذى يتخذه الرمز، و الثانى ما يطلق عليه ((Signifie)) أى المدلول عليه أو المشار إليه أو المعنى أو المضمون... و الأمران نفسيان فليست عملية النطق و لا الأشياء المعنية أجزاء مكونة للنظام اللغوى".[١]

٥. أكد سوسير على استقلال اللغة كنظام عن مستخدميها، حيث حدد منطقة عملها فى اللاوعى الإنسانى، بحيث تعمل اللغة فى غيبة الوعى أو التدخل الإنسانى، أى من دون تحكم للفرد فى لغته، حيث هو يستخدمها دون استحضار واعٍ لقواعد تلك اللغة، "و على هذا فالنظام اللغوى مستقر عند أفراد البيئة اللغوية فى اللاوعى، و مهمة البحث اللغوى أن يستخرج تلك العناصر و العلاقات المكونة للنظام اللغوى. و قد التقى دى سوسير فى محاضراته (١٩٠٦ _ ١٩١١) و الباحث الأمريكى بواس **Boas** (١٩١١) هنا حول القول بالطابع غير الواعى للظواهر اللغوية".[٢]

---

(١) د/ فهمى حجازى: "أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الاثنولوجية" ص (١٦٠- ١٦١).

(٢) المرجع السابق : ص (١٦١).

و للحق نقول إن إنجازات سوسير قد تجاوزت ما سبق، حيث هى تمتد و تتداخل مع ما سيضيفه لاحقوه، فهذه الإضافات تعد بمثابة شروح أو نتائج مباشرة أو مضمرة لما قاله و أرسى"سوسير "قواعده، لكن المهم هنا هو التحول الذى أحدثه سوسير على منهج و معطيات البحث اللغوى الذى أبرز من خلاله البنية اللغوية و كيفية عمل التحليل للوقوف على علاقات العناصر المكونة للبنية من خلال تسليط الضوء على الدراسة الحالة للبنية، ليتبلور مجهود سوسير لينتج النهج البنيوى أو النظرية البنيوية لدراسة بعض العلوم الإنسانية، من خلال تطبيق نسق البنية اللغوية (مثل بنيوية الجناح الشيوعى التى أخذت بالدراسة الحالة و النسق التاريخى، و (السوسيولوجيا) البنيوية فى الأنثروبولوجيا لدى ليفى ستراوس، و (السيميولوجيا) (*) فى أركيولوجيا المعرفة (و تعنى علم أصول أو حفريات المعرفة) لدى ميشيل فوكوه، وعلم النفس البنيوى لدى لاكان[1]، والبنية السياسية لدى لويس ألتو سير[2]، و البنية الأدبية لدى بارت)، و هذه النقلة النوعية هى التى جعلت من النسق البنيوى للنموذج اللغوى المثال و النموذج الأمثل الذى يجب أن يُحتذى ليتبناه فكر الحداثة كنهج مثالى صالح للتطبيق على مستوى كافة العلوم الإنسانية.

(*) علم العلامات، خاص بدراسة الدلالات اللغوية و غير اللغوية .

(١) جاك لاكان (١٩٠١ _ ؟ م) طبيب فرنسى التحق بحركة التحليل النفسى عام ١٩٣٦ م و طرد منها عام ١٩٥٩ م، و أسس عام ١٩٦٤ م الكلية الفرويدية فى باريس، و هو مفكر و فيلسوف بنائى.

(٢) لويس ألتوسير (١٩١٨ _) فرنسى من مواليد الجزائر ، حصل على الأجرجاسيون فى الفلسفة عام ١٩٤٨م، و فى نفس العام انضم للحزب الشيوعى، و حصل على الأستاذية عام ١٩٦٢م، طبق الفكر البنائى على مؤلفات ماركس فكان رائد البنيوية السياسية، أشهر كتبه " قراءة كتاب رأس المال " و " دفاع عن ماركس ".

ولكن لم تدم الموجة البنيوية على الساحة الفكرية أكثر من ربع قرن، تلى الحرب العالمية الثانية، و ذلك بسبب إخفاقها على مستوى الأدب فى تفسير كيفية توليد المعنى، وعلى مستوى العلوم الإنسانية فى تفسير الحالات و الظواهر التى تشذ أو لا تخضع لقوانين البنية. و سوف نتناول البنيوية بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا البحث، لنوضح الممارسات البنيوية و ما نتج عنها من نظرة نقدية خصوصاً على مستوى الأدب. و لكن ما نود التركيز عليه هنا هو ضرورة رصد جذور الأفكار، و ربط التسلسل فى تعاقب مراحل ذلك التطور الذى يرتكز فى كل مرحلة على سابقتها، سواءً بالنقد (كعلاقة التفكيك بالبنيوية)، أو بتطوير نتائج المرحلة السابقة (كعلاقة البنيوية بالرمزية)، فلا بد من وجود تأثير من الرمزية على البنيوية و كذلك من البنيوية على التفكيك، وهذا ما سيتضح فى الفصل الخامس من هذا البحث من خلال بحث علاقة ما بعد الحداثة (التفكيك و التلقى و التأويل و الظاهراتية) بالمذاهب الفوضوية.

ولهذا كله جاءت تسميتنا لتلك المرحلة باسم مرحلة البنيوية، والتى نشبهها أو نرصد فيها نهاية مرحلة الحداثة من بعد مرحلة التحديث(*)، لندخل بعد ذلك لبحث مرحلة ما بعد الحداثة الفكرية و التى تمثلها لغوياً مرحلة التفكيك، حيث يتم تفكيك كل شيء من علامة و دال و مدلول و نص و معنى و بنية كما سنرى الآن.

(*) مرحلة التحديث (Modernization) هى مرحلة تمهيد و إعداد المجتمعات للدخول فى مرحلة الحداثة (Modernity) التى كان العالم الحديث أو الصناعى يدرك تماماً أنه يعيش نمطاً من الحياة مختلف عن حياة المجتمعات السابقة عليه .

جـ- مرحلة التفكيكية (Deconstruction) [1]

تُطالعنا مرحلة (ما بعد الحداثة) و هى مرحلة تناهى الحداثة، و من جهة أخرى تطوير أفكار و أسس الحداثة لأقصى مدى ممكن لها بأفكار مختلفة، كانت وليدة أبرز نظريات النقد الأدبى فى تلك المرحلة و هى (الظاهراتية، و التلقى، و التفكيك) [2] و جميعها تتمحور حول اللغة الأدبية أو النقدية، منها ما هو معتدل (التلقى)، و منها ما هو متحيز (الظاهراتية)، و منها ما هو متهور و غريب و جانح (التفكيك)، كما سنعرض لآرائهم حول اللغة، فى الجزء الأخيرة من هذا الفصل، و هو ما سنتناوله بمزيد من التفصيل فى الفصل الخامس من هذا البحث، و سنرى فى النهاية هل سيحقق أحدهم هدف الحداثة من علمنة النقد و الأدب ؟ أم سيحققون الفوضى، بدلاً من العلمية ؟.

---

(١) فى مرحلة التفكيك ينظر إلى اللغة على أنها نظام مستقل و سابق على الوجود، و فى هذه المرحلة يتم فصل الدال عن مدلوله تماماً لنفسح المجال أمام اللعب الحر للدوال و مراوغتها للدال، و يظهر مفهوم الاختلاف و كذلك مفهوم الأثر الأول اللذان يمثلان من خلال عملهما معاً مصدر اللغة و شرط عملها ككتابة أو لغة أولية تعمل بطريقة آلية، لا يحدد المعنى سوى تركيباتها اللانهائية.

(٢) الظاهراتية هى نظرية نقدية ترى ضرورة تفسير النص على ظاهره، أى تأخذ بظاهر المعنى، أما التلقى فيجعل المتلقى هو الذى يحدد المعنى بحسب أفق توقع القارئ، و هذا يفتح المجال لعدة معانى محتملة للنص الواحد، و لكن التفكيك يقوض النص و المعنى من خلال إبراز متناقضات النص، و عليه يتم إعادة كتابة النص على يد المتلقى التفكيكى الذى يطرح معنى جديداً للنص هو عرضة للتفكيك من جديد، فلا قراءة نهائية أو صحيحة بل لدى التفكيك لانهائية من المعانى و من القراءات.

سبق و أن أشرنا إلى امتداد تأثير أفكار سوسير اللغوية (مباشرةً أو بتفكيكها و نقدها، كما قصدها أو لم يقصدها بفهم أو بسوء فهم) على لاحقيه من أرباب فكر ما بعد الحداثة و التفكيك، نعم مازالت بذوره تثمر حتى لغير ما زرعت له، فاختلاف التربة و المآخذ قد غيرت تماماً من ملامح الطرح السوسيرى. و من هذا تشكلت لغويات الربع الأخير من القرن العشرين، على أيدى رواد ما بعد لحداثة.

١- استقلال اللغة و أسبقيتها

لقد نقد دريدا النظرية الألسنية عموماً و فكر سوسير خاصة، عندما أبرز التناقض الموجود بين أفكار سوسير و بعضها، سوسير الذى سبق و ذكرنا عنه قوله بأن العلامة هى التى تربط الدال بمدلوله (شقى العلامة) و تربطهما بمرجع خارجى (الشىء الذى تشير إليه العلامة أو الإشارة اللغوية)، و كان يرى أن علاقة العلامة بالمرجع الخارجى هى علاقة اصطلاحية ناتجة عن التحفيز الزمنى الاجتماعى (العادة فى ربط الشىء بالاسم الدال عليه)، و هذه العلاقة عنده غير مطلقة تماماً، ذلك لكون شقى الإشارة غير مُحَفَزان (الربط بين الدال و المدلول هو ربط عشوائى) و ذلك لأن "التحفيز فى أحسن الأحوال لا يكون مطلقاً لأن العناصر المكونة للإشارة المحفزة ليست محفزة "[١]، و هذا لا يعنى تناقض فكر سوسير كما فهمه دريدا، بل الأمر واضح لأن التحفيز يأتى من الخارج حيث يصطلح عليه المجتمع اللغوى فى زمن معين، و هو غير مطلق بحيث إنه قد يتغير معنى أو تحفيز إشارة (علاقة الربط بين العلامة و ما تُشير إليه) من زمن إلى آخر فى نفس المجتمع اللغوى، أو قد تستخدم بصياغة (شعرية) أخرى تعدل من تحفيزها الدلالى فى نفس المجتمع

---

(١) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام "، ص (١٣٦).

اللغوى، فمرونة و حرية حركة التحفيز الدلالى أمر ممكن و وارد حدوثه لغوياً، و لا يدل ذلك أبدا على تعارض و تناقض فكر سوسير، كما فهم دريدا بالخطأ حيث خرج من هذا التناقض بالقول بحيادية الإشارة اللغوية بشكل مطلق.

و ترتب على ذلك قلب كافة المسلمات السائدة، فلا وجود سابق على اللغة، بل اللغة هى التى تؤجد العالم و الذات و الأشياء حال تشكلها لفظاً أم كتابة(*)، و إدراك العالم يتحدد من خلال اللغة المستخدمة فى تحديده(١)، و بالطبع لم يكن يقصد سوسير و لم يرمى أبداً إلى ما آلت إليه مسلماته اللغوية، حيث رأى أن الإشارات اللغوية بالرغم من كونها سيكولوجية إلا إنها ليست تجريدية لأنها تحمل الطابع الجماعى الاصطلاحى فى ربط الإشارة بمرجعها، التى تتألف من مجموعها اللغة، فهى أشياء حقيقية موجودة فى الدماغ. (٢)

و بالرغم من عدم جزم سوسير بأسبقية أى من شقى العلامة، إلا أن دريدا يرى فى فكر سوسير تناقضاً، و يؤسس عليه دريدا و يستنتج مقولة استقلال اللغة عن مستخدميها و يدفع بالمقولة لأقصى مدى ممكن ليصل إلى القول أيضاً بأسبقية اللغة على كل موجود و هذا يخالف و يتناقض تماماً مع ما يراه سوسير من تزامن تكون الدال و المدلول حال تكون العلامة التى توحد بينهما وهما معاً يمثلان حالة نفسانية و يرتبطان بالمخ برابط انتقائى(٣)،

(*) تقترب وجهة نظر دريدا هنا عن اللغة إلى حدٍ بعيد مع مفهوم هايدجر للغة التى يرى أن بها يتم الكشف عن العالم و أشيائه، و قبلها و بدونها يكون العالم عدم و اللغة هى التى تُخرجه إلى الوجود .

(1) Art Berman, " From the New Criticism to Deconstruction : The Reception of Structuralism and Post – structuralism " (Urbana and Chicago : University of Illinois Press, 1988) p.115.

(٢) فرديناند دى سوسير : " علم اللغة العام "، ص (٣٣، ٣٤، ٤٤).

(٣) المرجع السابق : ص (٨٤، ٨٥).

وارتباطهما يشبه اتحاد ذرتين هيدروجين مع ذرة أُكسيجين مكونين ذرة ماء، و لكن لبنيتها سمات تختلف عن سمات مكوناتها منفصلة. (١)

وعلى أثر استنتاج دريدا لأسبقية وجود اللغة واستقلالها(*) وأطلق سراح الدوال، و ظهر لعب الدوال الحر، و مراوغة الدال لمدلوله(**)، ولا نهائية المعنى، و التناص، و أصبحت الحقيقة و المسلمات أوهاماً، و آلت الأمور كلها إلى اللغة سابقة الوجود حتى على مستخدميها من منطلق استقلالها كنظام و أولوية وجودها، لأن وجودها سابق على كل موجود قد تحدد اللغة وجوده لندركه كمعنى.

---

(١) المرجع السابق : ص (١٢٢).

(*) لقد سبق هايدجر دريدا إلى القول بأسبقية اللغة و استقلالها، و هذا ما سنتناوله بالتفصيل فى الفصل الرابع من هذا البحث .

(**) مع قول دريدا باستقلال اللغة نجد العلاقات التى بين الدال و المدلول و التى بين العلامة و الشىء المشار إلى قد فقدت أهميتها و فقدت المركز الضامن لصدق وجودها، و بذلك الفقد يفتح دريدا المجال لحرية الدوال و لانهائية الدلالة، فبعد كشف زيف ميتافيزيقا تمركز الكلمة (العادة هى التى تجعلنا نربط الدال بمدلوله ليكونا علامة تُشير لشىء)، فبدلاً من تلك العلاقة التى شكك فيها دريدا و فككها نجد الدال حراً ما أن يشرع فى تكوين علاقة بمدلول حتى يتحول هذا المدلول إلى دال جديد، بل و أصبح الدال الواحد قادراً على الدخول فى العديد من العلاقات مع عدة مدلولات سرعان ما تتحول الأخيرة إلى دوال جديدة و لا يمكن للمعنى أن يتجمد أو يموت من خلال ثباته فى علاقة مع مدلول ليكون علامة . لذا فالدال يهرب دوما و يراوغ المدلول حتى لا يموت، فى حالة ثبات المعنى لحظة الإمساك به . و التناص هو لانهائية التركيبات اللغوية التى يظهر فيها الدال المجرد فى علاقات مع دوال أخرى، و ذلك لا يؤكد معنى محدد و لكن يؤكد لانهائية المعانى التى يمكن أن يشارك فيها الدال الواحد، فوجوده فى نص موضوع للنقد لا يثبت معنى للنص بقدر ما يفتح هذا النص على لا نهائية المعنى .

٢- أسبقية الكتابة الأولية

دأب الفكر الغربى على الوثوق بالصوت و الأداء اللفظى أكثر من الكتابة، رغبة فى توثيق الكلام الملفوظ، و ذلك لما يراه فى الصوت المباشر للمخاطب من مميزات قد لا تتوافر بنفس الدقة فى الكتابة، فمثلاً التواصل الشفهى (الصوتى) يزخر بالحضور المباشر الحيوى للمعنى و القصد الذى ينتقل مباشرةً من الناطق للمستمع، و للصوت عوامل أسلوبية مساعدة تضمن سلامة و دقة وصول الرسالة للمستمع كنبراته و طريقة أدائه و شدته وانخفاضه و مقاطعه، و على العكس من ذلك كان ينظر إلى الكتابة على أنها ثانوية أو تأتى فى المرتبة الثانية الهامشية و كأنها شر لابد منه لكون الكتابة لا تملك نفس مميزات الصوت و بها قد لا يصل قصد المؤلف لقرائه، أو قد يلتبس عليهم المعنى، لذا قد نجد عدة تفسيرات للنص الواحد، ولا نجد تفسيرات عدة لعبارة أو حوار نُقل مباشرة من قائل لمستمع.

و لهذا نجد أن "مفهوم الكتابة قد استحوذ على فكر دريدا أكثر من أى مفهوم آخر... فسواء تعلق الأمر بأفلاطون أو روسو أو سوسير أو هوسرل، فالكتابة ليس ثانوية و هامشية و حسب و إنما تصبح هى الآخر بالنسبة للصوت... و تتنازل عن الأولية و القيمة الأصلية حتى يتصف بها الصوت الأقرب للمتكلم ويربطه بالمخاطب، كما يربط المتكلم بقصده و معانيه ووعيه وكلماته... لكن العلاقة بالآخر ضمن خطاب الحضور نفسه، لها آلياتها وخصائصها التى تجعل صفاء الأول و نقاءه يتلوث بعيوب "الآخر "ونقائصه.[١]

---

(١) ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٤٩ _ ٥٠).

ولكن من أين أتى دريدا بفكرة أولية و أسبقية الكتابة، التى ظن أنها التى ستصحح و تحرر الفكر الغربى من سلطة الميتافيزيقا ؟ أولاً رد الصوت أو اللفظ المنطوق إلى شكل مادى (مكتوب) بمعنى أن كل لفظ منطوق هو قراءة لما سبق كتابته حتى داخل النفس المتكلمة"تكون برانية الدال هى برانية الكتابة بعامة"[١]، فهى تُعيد قراءة أثر مادى[٢] (أى تقرأ كتابة)، هذا من جهة و من جهة أخرى و بصفة عامة يمكن رد اللغة (النظام) إلى مجموعة القواعد المنظمة لعلاقات الرموز التى ليس لها مرجع سوى الأثر الأول المادى[٣] الذى تُخلفه و تشكله الاختلافات، و تلك هى الكتابة الأولية وهى فى نفس الوقت الدليل على أسبقية الكتابة على الصوت، لأن الأصل (الأثر الأول) هنا عبارة عن نقش مادى أى كتابة، و بعدها تأتى القراءة لتلفظ ما تم كتابته.

ويمكننا هنا أن نتساءل عن تناقض فكر دريدا، إذ كيف يحوى فكر دريدا مثل هذا التناقض ؟ (يقول بسبق الوجود اللغوى على أى وجود آخر – حتى و لو كان الأثر الأول الأصل – و هنا نجد دريدا مضطراً للقول بوجود سابق على اللغة وعلى الكتابة الأولية الأصل إنه –الأثر الأول– والاختلاف الذى يشكله ليرسم رموز اللغة الأولى، فمنه يشكل الاختلاف رموز الكتابة الأولية، و أيضاً الأثر سابق على اللغة بوجوده المادى قبل تشكله بالاختلاف، و يمكننا أن نعتبر للاختلاف وجودا آخر مستقل، و عليه فاتحاد الأثر و

---

(١) جاك دريدا : " الكتابة و الاختلاف " ترجمة / كاظم جهاد، تقديم / محمد علال سيناصر، سلسلة المعرفة الفلسفية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء بالمغرب، ط ١، ١٩٨٨م، ص (١١٤).

(٢) المرجع السابق : ص (١٢٢، ١٢٤، ١٢٨).

(٣) المرجع السابق : ص (٢٧، ٣٠ – ٣١ ، ٣٣ – ٣٤، ١١٩).

الاختلاف هما اللذان يدفعان اللغة للوجود، فكيف تكون مستقلة أو لها صفة الأولية ؟.

هذا و إن كان دريدا نفسه يفكك أفكاره فنراه بعدما يحاول إثبات أولية الكتابة و أسبقيتها على الصوت، يرجع فيساوى بينها و بين الصوت من حيث كونهما طريقتين لاستخدام اللغة، التى هى عنده كتابة من حيث الأصل. (١)

هكذا تتسم لغويات ما بعد الحداثة بالغموض و الالتباس، و كأنها (ما بعد الحداثة) تردنا لزمن فلسفة الأنساق بتبنيها ضمنياً نسق التناقض الدائم الذى أفشى الفوضى الدلالية، و الشرذمة الثقافية، التى ستظهر لنا جلياً عند مناقشة مظاهر الحداثة على اللغة و الأدب بعد قليل، و كذلك فى الفصل الخامس.

٣- اللغة الآلية و اللاوعى

انعكس استقلال اللغة و أولية الكتابة و سبق وجودها على الدور أو الوظيفة الكلاسيكية للغة، فلم تَعد وسيلة للتعبير و التواصل بين أفراد المجتمع، و ذلك بسبب أسبقيتها على الوجود نفسه فهى التى تحدد وجود الذات و الكلمات و الأشياء، و على ذلك تفككت فكرة اللغة كأداة، لتحل محلها اللغة الآلية، أو آلية اللغة التى تعمل آلياً على توليد المعنى و الوجود فى استقلالية تمكنها كنظام من العلاقات الثابتة بين عناصر البنية اللغوية السابقة فى الوجود على كل موجود، و هى وحدها التى تملك القدرة على منح الوجود للمعنى الناتج عن تغيير و استبدال العلاقات الأفقية و الرأسية بين عناصر البنية اللغوية من رموز أو وحدات لغوية بعيداً عن وعى مستخدميها طالما تعمل آلياً كنظام من العلاقات الاستبدالية بين عناصر البنية اللغوية السابقة حتى على مستخدميها،

---

(١) المرجع السابق : ص (٣٤).

فهى تملك نفس الخصائص و القدرة على توليد و منح الوجود حتى و إن لم يستخدمها أفراد، فاللغة هى التى تملك الأفراد (لمنحهم الوجود)، و اللغة ليست ملكاً لفرد أو مجتمع لأنها مستقلة و سابقة على الوجود فهى التى تحدد الوجود ذاته(*)، و هى و إن كانت تعمل و تظهر كآلية لغوية فى بيئة مستخدميها فذلك يكون فقط من خلال عملها أو إيداعها فى اللاوعى البشرى، و هى التى تبدع كل جديد من المعانى، فلا يوجد إبداع بشرى، و لكن هناك تناص (سبق ظهور لنفس الوحدات فى نصوص سابقة و لاحقة و لكن بعلاقات مختلفة للاستبدال الأفقى و الرأسى لنفس الوحدات، فالجديد من المعنى هنا ينتجه تغير تلك العلاقات، فيكون من إبداع اللغة و ليس من إبداع الأفراد، لأن كل ذلك كامن و موجود ضمن إمكانات اللغة الأولية)، و هذا ينفى تماماً أى قصد للمتكلم أو المؤلف، فلا وجود هنا إلا للغة و إمكاناتها اللانهائية فى توليد المعنى و فى إبداع المعانى اللانهائية، سواء وعى تلك المعانى إنسان أم لم يعيها، و عمل اللغة من خلال اللاوعى البشرى ما هو إلا نتيجة تلقينها له حتى يتعلم كيفية استخدامها، و فهم كيفية عمل شفرة رموزها، و علاقات تلك الرموز و عناصر بنيتها بعضها ببعض. و لكن استقلالها و سبقها يمكنها من استمرار عملها آلياً فى إبداع معانٍ لا نهائية، بعيداً عن الوجود البشرى حتى و إن لم يدرك تلك المعانى عقل بشرى.

و بهذا تكون "هذه البنية هى ما يطلق عليه دريدا اسم الكتابة الأصل أو الصوت الأصل إذ لا فرق بينهما إذا تجردا مما يتبع أولية أيهما من قيم هرمية. كما أن هذه البنية الكتابية هى بنية اللغة الموضوعية عموماً،

(*) يتفق هنا وجهة نظر التفكيك و دريدا مع مفهوم اللغة عند هايدجر كما سبق و أشرنا لهذا سابقاً و كما سنتناوله بالتفصيل فى الفصل الرابع .

وهى بنية لا تعتمد على ذات تُحركها و تمتلكها أو تبعث فيها الحياة، بل هى آلية تؤدى عملها و وظيفتها الدلالية من غير قصد واع و من غير حضور. و هى بهذا بنية الغياب العام. و لم تكن الفلسفة إذن مخطئة فى توصيفها للكتابة، و إسقاط هذه السمات عليها، لكنها كانت مغالطة حينما ربطت بين هذه السمات و بين قيمة الحضور فى سعيها لإثبات الدلالة اللغوية".(١)

وهذا أيضاً ينطبق على الكتابة حيث نجد اللغة ذاتها "بحسب ما أثبته دريدا لا تعود إلى الكتابة فى أحرج لحظات الدلالة و حسب، بل إن بنية الكتابة هى بنية اللغة الدلالية عموماً، و لعل المثال الذى يضىء هذه المفاهيم المعقدة هو تقويض دريدا لفلسفة الظاهراتية عند هوسرل، خاصة وأن فلسفته لا تربط اللغة بوظيفتها التعبيرية و بقصد و ذاتية المتكلم و حسب، وإنما تسعى إلى تحديد اللغة ((الحقيقية)) عند مستواها ((الحقيقى)). لكن هوسرل كما سيثبت دريدا ذلك، سيستغنى عن اللغة الحقيقية فى لحظة اكتشافه إياها، إذ إنه سيجعل هذه اللغة الحقيقية لا تختلف عن وضع الكتابة التى زعمت الفلسفة أنها استغنت عنها بوصفها إضافة و ملحقاً على حالة وفرة أصيلة".(٢)

وهو سرل يرى أن اللغة الحقيقية تعتمد على التعبير أى كما قصده وأراده المتكلم (مستخدم اللغة)، إذن هناك وعى يعنى المعنى و يعيه و يحدده و يقصده، و ليست الكلمات هى التى تعنى. "ليس المعنى إذن هو اتحاد الدال الحسى بمدلوله النفسانى، كما لا يحتويه دال خارجى إذ بدون ذات واعية تعى و تعبر عن معناها فى لحظة اللفظ فلا حياة و لا حيوية لا فى الدال ولا فى المدلول و لا فى اجتماعهما معا فى نظام آلى. فهوسرل فى تركيزه على

---

(١) ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٥٧).

(٢) المرجع السابق : ص (٥٧).

أهمية الوعى الذاتى يحارب كل ما هو آلى : خاصة آلية الكتابة ونظامها التصويرى الخارجى".[١]

هذا على مستوى التعبير الخارجى والتواصل بين الأفراد، ولكن عند مستوى مناجاة النفس لذاتها "فى صفاء الحوار الداخلى ثمة أمر آخر قد تحقق فعلاً. فيعترف هوسرل نفسه أن تحقق الحوار الداخلى يقتضى أن يكون المرء قد عرف مسبقاً كل ما سيقوله حتى قبل أن يبدأ بالهمس الفعلى الداخلى. و هكذا يكون القائل الداخلى و المستقبل الداخلى قد اشتركا فى معرفة المعنى و وقوعه... و بهذا تكون اللغة ((الحقيقية)) قد تقلصت إلى مجرد إضافة و زيادة لا مبرر لها بما أنها وسيلة التعبير عن المعنى، و المعنى هنا قد تحقق قبل مجيئها".[٢]

وهذه النظرة هى ذات النظرة التى ترى أن الكتابة مجرد إضافة و ملحق على الصوت، و المعنى المتحقق فى الصوت قبل مجىء الكتابة عبر تاريخ الفلسفة، وهى أيضاً التى ترى أن اللغة أو الكتابة عموماً عند مستواها الحقيقى هى وسيلة للتواصل و التعبير الواعى للذات، و أن كان هذا يلبى مطلب الذات الفلسفية على حساب اللغة بما يتناقض مع خصائص بنية اللغة النظامية المستقلة، و هنا يكمن تناقض هوسرل حيث ألغى اللغة كنظام أو الكتابة (حيث رأى أن اللغة إضافة لا مبرر لها) ثم يلجأ للغة حتى يكتب فلسفته، أى أنه عاد و لجأ لها لصياغة أفكاره و لتوثيقها.

---

(١) ميجان الرويلى، السابق، ص (٥٨).

(٢) المرجع السابق : ص (٦٠).

وينقض دريدا نظرية هوسرل و يفكك فكرة الوعى و اللغة الإنسانية و التعبير و التواصل، ليحرك آلية الكتابة فيرى أن اللغة الحقيقية لا تتمثل فى مستواها الإنسانى، بل فى مستواها الآلى، أى فى بنيتها النظامية المستقلة عن الوعى و اللاوعى.

فيرى دريدا معنى"أن تكتب هو أن تُنتج علامة هى بطبيعتها تؤسس نوعا من الآلة التى بدورها تتسم بالإنتاجية، (القائمة بذاتها) التى (بهذا) لم يمنعها غيابى المستقبلى من حيث المبدأ، من استمرارها فى تأدية وظيفتها (الآلية)، و هى استسلامها للقراءة و إعادة الكتابة".(١)

و هذا يعنى أن بنية اللغة أو الكتابة عموماً "تعمل (آلياً) مكتفية بنفسها عندما ينفصل قصدها عن حدسها ".(٢)

والآن نتناول تفصيلاً آثار تجليات الحداثة على اللغة والأدب والمعرفة.

ثالثاً: آثار تجليات الحداثة على استقلال اللغة وعلمنة النقد ونسبية المعرفة:

أننا هنا نرصد بعض الصور الحداثية لتطور البحث اللغوى، و نتائجه على المعرفة و النقد الأدبى و نظرة مفكرى الحداثة للغة المستقلة والأولية. و يمكن القول إن أهم آثار تجليات الحداثة و ما بعدها على البحث اللغوى يتمثل فيما يلى:

---

(1) Jacques Derrida, : " Signature Event Context, " in A Derrida Reader : Between the Blinds, ed. Peggy Kamuf (New York and London: Harvester Wheatsheaf, 1991), p. 91.

(2) Jacques Derrida, " Speech and Phenomena, and Other Essays on Husserís Theory of Signs , trans. David B. Allison (Evanston, Illinois: Northwestern University Press, 1973), p.92.

أ- النظرة للغة و وظيفتها و مكانتها

مع انتشار فكر الحداثة تغيرت و انتفت النظرة التقليدية للغة على أنها وسيلة (للتعبير و التواصل)، لتتحول لدى البنيويين إلى مجرد نسق ثابت من العلاقات (لها قوانينها الذاتية)، و يزداد التحول ليصل باللغة لدى مفكرى ما بعد الحداثة للنظر إليها باعتبارها غاية أى تعمل آلياً، فهى مستقلة وأولية وسابقة بل، و تُحدد وجود ما سواها.

فمنذ المرحلة الرمزية بدأ التغير فى النظر للغة و انعكس ذلك على المعرفة و الأدب كما سبق ذكره[١]. و تمثل التغير فى فصل اللغة عن الواقع لتعبر عن عالم روحى، و انعكس ذلك على الأدب حيث جاءت القصيدة لتعبر عن تجربة شعورية و خبرة روحية يحدد ملامحها الشاعر أو الناقد.

أما عند البنيويين و سوسير فالنظرة للغة تطورت لتصبح "موجودة لا كشىء مادى بل كنظام حقيقى كامن فى عقل أبناء اللغة "[٢]، و بهذا بعدت اللغة أكثر عن تمثيل الواقع و عن كونها وسيلة للتعبير و التواصل ؛ حيث تم الفصل بين اللغة كنظام و اللغة كأداء، و النظرة البنيوية تلك كانت مدعومة بحلم تحقيق علمية النقد الأدبى، الحلم الذى تحقق على حساب ضياع المعنى (أو إنتاج معنى جامد نسقى لا يعرف قصد و لا إبداع بشرى)، و لم يبق من البنيوية سوى فكرة النسق اللغوى و الأنساق الأدبية، و جميعها عقيم لا ينتج أى معنى، فقط يُظهر و يؤكد على البناء و على هيكل علاقات عناصر بنية النص أو القصيدة، و طرق تحليل معطيات كل نسق أو بنية نصية، و هذا

---

(١) راجع النص الخاص بالحاشية رقم (٥) فى النقطة الثانية من هذا الفصل، وصفحتان بعدها.

(٢) فهمى حجازى " أصول البنيوية فى علم اللغة و الاثنولوجية " ص (١٦٠).

يعنى وجود قوالب – جامدة – (أنساق) جاهزة دوماً لتفسير أى لون أدبى أو عمل فنى.

وهكذا تنظر البنيوية للغة على "أنها نظام من العلاقات بين الوحدات التى تشكلها، و هذه الوحدات ذاتها تتشكل هى الأخرى من الاختلافات التى تميزها عن سواها من الوحدات التى لها بها علاقة. و هذه الوحدات لا يمكن أن يقال إن لها وجوداً بذاتها، بل تعتمد فى هويتها على أندادها ؛ فالمحل الذى تحتله وحدة ما، سواء أكانت صوتية أو معنوية فى النظام اللغوى هو الذى يحدد قيمتها. و هذه القيمة تتغير لأنه ليس هناك ما يثبتها و النظام اعتباطى (عشوائى) بالنسبة للطبيعة، و ما هو اعتباطى قد يتغير".[١] و هذا يعنى أن "تُفسر الأسطورة من داخلها، أن يسمح للنظام ذاته أن يملى معناه عليك –إن صح التعبير– ومن هنا يتضح كيف يمكن للبنيوية أن تمتد لتدرس الأدب أو ما سواه من أنواع الكتابة. فهى تمارس أولاً و قبل كل شىء نقداً من النوع ((الكامن)) وترفض أن تنظر خارج النص أو مجموعة النصوص".[٢]

و خلاصة القول هنا إن "اللغة ما عاد ينظر إليها على أنها واسطة الفكر البسيطة الشفافة كما كان يعتقد"[٣]؛ و تتمركز و تتمحور النظرة للغة أكثر فى مرحلة البنيوية و ما بعدها، لتزداد أهميتها و مركزيتها و استقلالها و سيطرتها، فنجد اللغة تلعب "دوراً مركزياً فى فكر بارت و فوكوه و دريدا و لاكان... حتى ليُمكن القول إنهم جميعاً مولعون بها – مولعون بالطبيعة

---

(١) جون ستروك " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا " ترجمة د / محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٠٦)، ص (١٨، ١٩).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٠).

(٣) المرجع السابق : ص (٢١).

المؤسسية للغة و بقدرتها اللامتناهية على الخلق... و هكذا يمكن وصف اللغة بأنها لا شخصية و تتجاوزنا بوصفنا أفراداً".[١]

وعلى أثر ذلك ظهرت مقولات و مفاهيم غريبة : ١- كموت المؤلف (انقطاع صلته بالعمل الأدبى بمجرد الانتهاء منه)، ٢ - و التناص (ورود وحدات اللغة فى النصوص القديمة و المعاصرة لا يعنى إبداع معنى جديد ؛ بل يعنى ظهور علاقات جديدة بين وحدات اللغة، هى التى تولد هذا المعنى المحتمل)، ٣ - القراءة التشخيصية (التى تهتم و تدرس النص من خلال علاقات وحداته ببعض، و ترى أن إنتاج المعنى يأتى من طبيعة العلاقات التى بين وحدات بناء النص، ٤ - الاستبدالات[*] الأفقية و الرأسية - تبعاً لظهور وحدات على حساب وحدات يُخفيها النص، و لكنها حاضرة من خلال ثنائية تضادية مثل (الليل / النهار) فذكر أحد طرفى هذه الثنائية لا يعنى غياب الطرف الأخر بقدر ما يؤكد حضوره بسلب صفاته عن الطرف المذكور فى النص)، أى يتداخل الحضور بالغياب، لتسقط مقولة اللغة التمثيلية و الحضور الشاخص للكلمة، و تأكيداً على عشوائية علاقة الدال بالمدلول، و فتحاً للعب و مراوغة الدوال للمدلولات.

و انعكس ذلك على الفن و الأدب و النقد الأدبى حيث ظهرت : ١ - القصيدة التى لا تهتم بالمعنى و المضمون فقط بل بالجرس الموسيقى،

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٢).

(*) نعنى بالاستبدالات أننا عند صياغة أى عبارة أو جملة (فى اللغة العربية مثلاً) تتكون من فعل و فاعل و مفعول، فعندما نختار الفعل (ذهب) مثلاً فإننا نختار، من المحور الرأسى الذى يحتوى على العديد من الأفعال فيمكن أن نستبدل الفعل (ذهب) بغير، من مجموعة الأفعال (رجع و قام و خرج و جاء و هب) و هذه المجموعة تمثل الاستبدالات الرأسية الممكنة، أما الاستبدالات على المحور الأفقى فتخضع لجدول تنظمه قواعد كل لغة .

و إيقاع الكلمات، ٢ – و رصد علاقات التضاد و الانسجام بين تناغم الأصوات و تداخل الألوان، و تبادل صفات المحسوسات كشم الألوان و سمع المحسوسات ؛ ٣ – فلم يعد الاهتمام منصباً على مادة و مضمون نسيج العمل الفنى بقدر ما ينصب على العلاقات التى تُجسده، و من هنا فشلت البنيوية فى تفسير كيفية إنتاج المعنى فى ظل تحقيق علمية النقد و الأدب، لأن نسقية الأدب و النقد أصبحت تتنافى مع عوامل إنتاج الفن و الأدب، التى منها مشاعر الفنان و المتلقى ؛ إذ كيف تُفرض عليهما معنى نسقى جامد، و تتجاهل ظروف و بيئة كل من الفنان و المتلقى و الإمكانيات المتاحة، و ترفض الهدف من العمل الفنى و القصد فى تحديد المعنى، و البنيوية إذ ترفض و تفند و تضحى بكل ما من شأنه تدعيم الدور البشرى فى إبداع المعنى، فذلك من أجل النسق و البناء، مما أدى إلى النظر للمعرفة البشرية على إنها أنساق ثابت (قوالب جاهزة)، و هذا ما يظهر جلياً من خلال نظرة ميشيل فوكوه والنتائج التى توصل إليها فى (نظام الأشياء) و أركيولوجيا المعرفة[1]، و حديثه عن الحقب المعرفية و التحول المعرفى و القطاعات و الوحدات المعرفية.

أما فى مرحلة التفكيك فالصورة تأخذ منحىً مختلفاً، فعلى الرغم من كونها تدفع بأفكار سوسير و البنيويين إلى أقصى مدى ممكن، إلا أن تلك المرحلة تطالعنا باستقلال اللغة و سبق وجودها على كل وجود، كما مر بنا قبل قليل، فتظهر مفاهيم جديدة على الساحة اللغوية و الأدبية، منها :

١. ((لا نهائية المعنى)) فكل قراءة صحيحة إلى أن تأتى مقاربة تخطئ القراءة السابقة، ذلك لأن موت المعنى فى ثباته، و لهذا فهو يراوغ دائماً لعدم

---

(1) Michel Foucault,: " The Order of Things : An Archaeology of the Human Sciences " (New York: Vintage – Random House, 1973), p.235.

الإمساك به، و لا نهائية المعنى تحكمها فقط ظهور علاقات جديدة بين وحدات اللغة، و تشكل تلك العلاقات الموجودة سلفاً و التى لا تدخل لأحد فى وجودها سوى خصائص اللغة نفسها.

٢. وغير ذلك من مفاهيم غريبة مثل (اجتياح حدود النص، و تمفصل المعنى، و سطوع نجم المتلقى (المؤلف الجديد)، و تشذى المعنى، وفجوات النص، وظـــاهر الـــنص، والتأويـــل، والميتالغـــة، والميتانقـــد)(*)، وكل هذا يتنافى تماماً كون اللغة وسيلة للتعبير و التواصل، فهذا أصبح من أوهام و خرافات الفكر الغربى السابق.

٣. فاللغة هى كتابة آلية أولية مستقلة تحدد بتركيباتها لوحداتها وجود ذواتنا، و وجود كل ما يتناوله تفكيرنا، لأننا لا نفكر و لا نحيا إلا من خلال لغة الكتابة الأولية.

فقد "كانت لحملة دريدا المعقدة المتأنية لتحطيم المكانة التى تعطيها الثقافة الغربية للغة المحكية (المنطوقة) فى مقابل اللغة المكتوبة بوصفهما شكلين من أشكال الاستعمال اللغوى... لأن الكتابة هى ذلك النوع من الاستعمال اللغوى الذى يغيب عنه الفرد الإنسانى القادر على إعطائه صفة الصدق".(١) (بمعنى أن الكتابة هنا أصبحت آلية بما تملك من قوالب وتركيبات جاهزة، و لذلك فلا يحق للإنسان أن يُحمل اللغة قصده أو معنى مُحدد و لا حتى يضمن صدق أو صحة تعبير اللغة عن معنى، فقط لأن اللغة هنا وحدها هى التى تقصد و تعنى و تقول على لسان الإنسان).

---

(١) جون ستروك " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا "، ص ص (٢٣ _ ٢٤).

وحتى فى الحالات المعيارية "حيث ينسب النص فعلاً إلى فرد واحد يُذكر اسمه، فإن دريدا يقول إن ذلك النص قد تحرر من الفرد الذى وضعه، و الذى قد يكون ميتاً.

٤. والكاتب لا سلطة له على ما كتب و نشر لأنه يكون بذلك قد سلمه للغرباء و للمستقبل، و هذا يعنى أن المعانى التى سيتمخض عنها النص ليس من الضرورة أن تتطابق و المعانى التى يعتقد أنه وضعها فيه، فهذه المعانى ستعتمد على من سيقرأها و على ظروف القراءة، أى أن دائرة المعانى ستقل طاقتها على التوصيل لأنها لم تعد مباشرة كما كانت عندما كانت المعانى تنتقل من المتكلم إلى المستمع".(١)

٥. وهذا يعنى أن "اللغة قوى لا نستطيع السيطرة عليها حتى عندما نستخدمها استخداماً شديد الوعى "(٢)، و لهذا يرى "دريدا "أن اللغة تعمل بعيداً عن الوعى و اللاوعى(*).

٦. و أيضاً نجد أن جميع مفكرى ما بعد البنيوية "لا يؤمنون بأنه من الممكن تفسير كل شئ، و لا بالتفسيرات الغائية للتاريخ. و هم يعارضون المفرد و الجمع و يفضلون استخراج مجرّات كاملة من المعانى من عدد محدود من الظواهر استناداً على الفكرة القائلة بأن هذه الظواهر لا تضم معنى واحد

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٤).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٤).

(*) اللاوعى هو اللاشعور، و اللاوعى هو من المصطلحات التى ابتدعها رواد ما بعد الحداثة حتى يظن القارئ أن مفهوم المصطلح خاص بهم و ليس مصطلح قديم، و المقصود من قول دريدا هنا أن اللغة تعمل آلياً دون تدخل الإنسان فهى ليست شعورية أو حتى لاشعورياً .

سائد. و يعتقدون بضرورة ((الانتشار)) (حسب تعبير دريدا) بقدر ما يتعلق الأمر بالمعنى".[١]

٧. ووجهة نظر مفكرى ما بعد البنيوية ترى أن "الدال هو ما نستطيع الثقة به لأنه مادى، أما المدلول فيبقى مسألة فيها نظر. و الدال الواحد لابد أن ينتج مدلولات مختلفة لشخصين مختلفين ؛ مدلولات تحمل مكاناً دلالياً مختلف الحدود بسبب اختلاف التجارب الفردية. كذلك سينتج الدال الواحد مدلولات مختلفة للشخص الواحد فى أوقات مختلفة لأن تركيب العلاقات القائمة فى المكان الدلالى غير ثابت".[٢]

و بالطبع انعكس ذلك على الأدب:

١. من خلال مطالبة مفكرى ما بعد البنيوية بالغموض المتعمد، لأنهم لا يؤمنون بالوضوح، و يحلمون بكتابة مثالية تُنتج كتاباً لا يقول شيئاً محدداً ليفسحوا المجال به لقول كل ما يمكن أن يحتمله من تأويل و تفسير و مقاربة. فهم "لا يوافقوننا على أن الوضوح هو الفضيلة الشاملة أو الواجب العام الذى يصفه بهم نقادهم... فهم يبينون أن فى اللغة من الأمور أكثر من جانب الوضوح ؛ فالوضوح يوهمنا بأننا نسيطر على اللغة، بأننا نجعلها تفعل ما نريد بالضبط... يريدون أن يبينوا الدرجة العالية من الاستقلال الذاتى الذى تتمتع به اللغة، و أن هناك مما يمكن أن يقال عن أى موضوع، بما يزيد بشكل لا حدود له، على ما يمكن أن يقوله الذين

---

(١) جون ستروك " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا "، ص (٢٥).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٤).

يؤمنون بأن كل ما يستحق القول لابد أن يقال دون مواربة. فالغموض نفسه مزية إن آمن المرء بتلك النظرة للغة و إمكاناتها".[١]

٢. و هذا يعنى بحسب منطلقهم، أن العلاقة بين الكاتب و القارئ يجب أن تكون أكثر تحرراً، و لا يتم ذلك إلا إذا توقف الكاتب عن إجبارنا على تقبل مذهبه الثابت بكل ما فيه من بساطة مزعومة، لأن هذا سيتطلب منا بذل الجهد من أجل تكشف المعنى المقصود من خلال كلماته الغامضة بحيث نكون المعنى من خلال تقدمنا فى قراءة نصه. إن مثل هذه الجهد (لقراءة النص) يجب أن يتصف بالسيولة و القدرة على التخلص من القيود، و لا يتقيد بحتمية مذهب المُؤلف، عند هذا فقط تكون القراءة جهداً خلاقاً. [٢]

٣. و لا غرابة فى تعمد الإبهام و الغموض، و لكن الغرابة فى رفض الوضوح و ذمه، لأننا إذا ما طالعنا تاريخ الفكر الفلسفى عامة و جذور الحداثة خاصة و منها ما ذكرناه آنفاً فى الفصل الأول من هذا البحث، لوجدنا مثلاً "أن الكانطية من دون موضوع الإبهام ما هى إلا وصف يطبق غالباً على الفكر البنيوى من قبل أولئك المتشككين فى قدرتها... حيث تتبدى مماثلة الفلسفة الكانطية القائمة على العقل والسبب، و قد قام عمانوئيل كانط (**1724- 1804**) بوضع فلسفته القائمة على تنقية الفلسفة من التشكك الأساسى الذى طرحه هيوم معتقداً أن من المستحيل الوصول إلى أى يقين ذاتى محدد فى معرفة العالم ".[٣]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٧).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٨).

(٣) كريستوفر نوريس " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص ص (٩ – ١٠).

٤. و مثل هذا الإبهام (و الغموض المتعمد) ينعكس على النظر إلى طبيعة المعرفة فهى فى المرحلة البنيوية كانت معرفة نسقية (تماثل قوالب الفكر الجاهزة لدى كانط)، و لكن مع تغير النظرة للغة و وظيفتها نجد المعرفة باتت نسبية متغيرة بحسب ما تقتضيه و تفرضه علينا تركيبات اللغة، فلا يقين و لا حقيقة و لا معرفة ثابتة، كل هذا أصبح أوهاماً خلفتها ميتافيزيقا الفكر الغربى المنصرم.

والجدير بالذكر هنا هذا التواصل و التداخل ما بين جذور الحداثة و جذور ما بعد الحداثة، الذى مبعثه أن كل أثر لفكرة أو فلسفة تكون قد أثرت فى الحداثة هى بالتالى مؤثرة و متواصلة مع فكر ما بعد الحداثة، لذا وجب علينا تتبع كل أثر (من جذور الحداثة) منذ بداية ظهوره (فى القرون السابقة)، ثم تتبع التطورات التى طرأت عليه من خلال ظهوره فى فكر الحداثة، ثم تتبع الكيفية التى تطور بها نفس هذا الأثر و كيفية وروده ضمن فكر ما بعد الحداثة، و ضرورة هذا الربط ما بين الحداثة و ما بعدها فى البحث عن الجذور لا يرجع فقط لتداخل الجذور المشتركة، و إنما يرجع فى الأساس إلى تداخل و تواصل فكر الحداثة مع فكرما بعد الحداثة، كما سيتضح ذلك (التأثير و التواصل) بالتفصيل من خلال دراستنا للفصل الرابع من هذا البحث.

ب- المفاهيم المصاحبة للحداثة.

يلاحظ أن هناك عدداً من المظاهر الحداثية (التى نتجت عن الحداثة و ما بعدها)، التى انعكست على اللغة و الأدب و المعرفة، و لكنها جميعاً تُعد مظاهر فرعية بالنسبة للمظهر الأول السابق ذكره عن (النظرة للغة ووظيفتها و مكانتها)، وأما تلك المظاهر الفرعية فهى مفاهيم أو مصطلحات غريبة، أقحمها مفكرو اللغة عبر مراحل التحديث، فجاءت كنتاج لافتراضاتهم،

و هى فى نفس الوقت بمثابة دعامات أساسية لنشر و تثبيت أفكارهم حول اللغة، و من تلك المصطلحات:

١- الغرابة و الشذوذ:

فنجد ""فوكوه "يساند الانطلاق الحر للرغبة و يساند المنحرفين عن المعيار الاجتماعى من هذا النوع أو ذاك ممن طوح بهم باتجاه هامش المجتمع و عوملوا معاملة الغرباء أو المرضى. بينما يعشق "بارت "ما يدعوه بالنشاز الكتابى (على شاكلة النشاز الصوتى) الذى تتيحه طبيعة اللغة، يعشق تلك الأفكار المتناقضة التى نمارسها جميعاً، و التى تجعل من الصعب الدفاع عن الفكرة التى تقول إن ثمة جوهراً فى أعماقنا متسقاً تمام الاتساق مع سلوكنا الخارجى هو التعبير الوحيد عنه".(١)

وغير ذلك من ولعهم بالخروج على المألوف، خاصة فى تناولهم لموضوعات غاية فى الغرابة و الشذوذ لم يألفها الأدب من قبل بل كانت مستبعدة تماماً، و من ذلك أيضاً نجد ولعهم بالخروج على النحوية و النوع والأسلوب.

٢ - رفض الوضوح و تعمد الغموض :

وهنا نجد أن تعمد الغموض هو نتيجة للنظر إلى اللغة على أنها نسق من العلاقات مستقل بتركيباته عنا، فتعمد الغموض ليس دليلاً على فشل رواد الحداثة فى تعمد الوضوح الذى كان النقاد السابقين يَعدونه ميزة للكتابة الأدبية، و لكن الأخذ باستراتيجية الحداثة من حيث استقلال اللغة جعلت من تعمد

---

(١) جون ستروك " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا " ص (٢٥).

الغموض ميزة منهجية تؤدى إلى غنى و تعدد المعنى، بدلاً من ثباته فى المعنى الواضح. (١)

فتعمد الغموض (وفقاً لهذا الرأى) هى التى ستمكننا من كتابة نص غامض لا يعنى شيئاً محدداً، بحيث تزداد فرص تفسيره لكى يحتمل أن يقول الكثير عن كل شىء ممكن أن يحتمله تفسيره.

والجدير بالذكر هنا الكشف عن طريقة استنتاج أسس استراتيجية الحداثة بعضها من بعض، و اعتماد الواحدة منها على غيرها (بحيث نجد كل فرض يستند على فرض آخر و لا تثبت صحة أى فرض، إلا بالتسليم بصحة باقى الفروض، و الأخذ بها كمسلمات) و هنا مكمن مغالطة شديدة الخطورة، فمثلاً هم هنا يدعون لتعمد الغموض فى كتابة النصوص حتى لا يتم فهم معنى محدد ثابت (يكون المؤلف قد قصده)، فيظهر تعدد ثم لا نهائية المعنى ولا نهائية القراءات (فيكون استنتاجهم لـ لانهائية المعنى نتيجة منطقية لتعمد الغموض فى كتابة النص)، و لا يخفى علينا أن تعمد الغموض كان مطلباً استراتيجياً لنفى القصدية من بعد تأكيدهم على ضرورة استبعاد (أوموت) المؤلف، و بهذا لا يكون هناك تواصل و لا تعبير و لا قصد مؤلف، فيقولون مستنتجين من هذا و مدللين به على سبق وجود اللغة و استقلالها.

وإذا ما دخلنا دائرة افتراضاتهم من أى موضع سوف تتسلسل افتراضاتهم كحلقات تستند الواحدة منها على الأخرى، بمعنى ضرورة التسليم بصدق ما قبلها و ما بعدها من فروض، فمثلاً التسليم باستقلال اللغة يجعل من

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٧).

باقى سلسلة الفروض صحيحة، فى حين أن فرض استقلال اللغة هو نفسه فرض يفتقر إلى الدليل، و لكن فى استراتيجية الحداثة نجد الدليل يستند إلى فرض أو مجموعة فروض، مثل تعمد الغموض، تقضى ألا تظهر قصدية المؤلف، الذى انقطعت صلته بالنص، و على ذلك يتم رفض أى سيطرة أو قيود قد يفرضها الكاتب على الناقد، ليصل للمعنى المقصود، لنستنتج لا نهائية المعنى. فمن ميزة الغموض إلى التفتح على تعدد المعانى، ثم لا نهائية المعنى، و كل هذا مستند على صحة فرض استقلال اللغة، الذى بدوره يستند على ضرورة تعمد الغموض و نفى قصدية المؤلف، و من هذا نكتشف أن استراتيجية الحداثة تمارس تعمية مقصودة (فى الخلط بين المسلمات و الفروض) لكى تؤسس لفكرها و منهجها مصداقية زائفة لا تصمد أمام التفنيد.

٣ – نقض التراث و الحقيقة و المعرفة:

من أخطر الأفكار التى نادى بها و طبقها مفكرو ما بعد البنيوية، هى فكرة نقض و رفض مجمل التراث البشرى و مسلماته، من أجل إعادة النظر فيها بالنقد و التفكيك، من منطلق أنها بنيت على مقدمات ميتافيزيقية، و أوهام و مغالطات، لهذا لابد من رفضها، و حرق جميع المكتبات لعدم فائدة ما بها من كتب و علوم و معارف سابقة.

وعلى مستوى الحقيقة و المعرفة، نجد أن المعرفة "كانت نتاج العقل البشرى و عملياتها تفسر العالم، و لا تقدمه بكل حقائقه البدائية و الفطرية، غير أن تلك العمليات استنادا إلى كانط، كانت عميقة جداً فى الفهم الإنسانى، حيث قدمت أساساً جديداً للفلسفة. لذلك فإن الفلسفة من الآن فصاعداً يجب ألا تنشغل بالسؤال الخادع،عن ((الحقيقى)) و لكن بالتناسق العميق المحدد أو – بالحقائق الأولية – التى تشكل الفهم الإنسانى... إن معرفتنا عن العالم ذات أشكال لا سبيل للخلاص منها، و هذه المعرفة محكومة باللغة التى تقدم

تلك الأشكال... و إن المعانى – حسب وجهة نظر سوسير – محكومة بنظام من العلاقات، و الاختلافات، يقرر و بشكل فعال، طريقتنا فى التفكير و الإدراك".[١]

أما على مستوى نقض التراث، فنجد التفكيك عامة و كتابات دريدا خاصة، تقوم على تفكيك و كشف تناقضات النصوص و النظريات السابقة، و هذا شعار التفكيكية أى "ضرورة قطع الصلة مع الماضى"[٢]. وهذا ما نتناوله تفصيلاً فى الفصلين الرابع و الخامس.

٤ – استقلال اللغة عن الوعى و اللاوعى:

كان الأدب قديماً يقوم على الإبداع البشرى، الذى كان يُفترض صدوره عن وعى المؤلف و موهبته (ملكة الكتابة)، و لكن تبدد و تغير كل هذا مع الحداثة بموت المؤلف، و استقلال اللغة و سبق وجودها على كل وجود، فلا إبداع بشرى لأن اللغة وحدها تملك، و توجد بها جميع التركيبات و الصيغ الممكنة، و هى بتلك التركيبات اللانهائية العامل الوحيد الذى يتحكم فى إفراز المعانى الممكنة، بل و اللانهائية.

وجاءت الفكرة امتداداً لفكرة سوسير"حول القول بالطابع غير الواعى للظواهر اللغوية "[٣]، و كان المقصود بهذا أن النظام اللغوى لا يظهر للوعى أثناء الاستخدام اللغوى، لكنه مستقر فى اللاوعى منذ تم تحصيله و اكتسابه من أبناء نفس البيئة اللغوية. و طور ذلك دريدا إلى القول باستقلال اللغة عن الوعى واللاوعى، لأننا لا نملك اللغة بقدر ما تملكنا اللغة. [*] و هذا يكشف عن تناقض قائم بين مفكرى ما بعد الحداثة أنفسهم، فنجد لاكان يركز "على أن

---

(١) كريستوفر نورس " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص (١٠).

(٢) د / ميجان الرويلى " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٤٨).

(٣) د / فهمى حجازى " أصول البنيوية فى علم اللغة و الاثنولوجية " ص (١٦١).

((اللاوعى له بنية مثل اللغة)) و بتحديد أكثر((أن لاوعى الذات هو حديث الآخر)) ... إن ما يتبدى فى الحديث هو الشكل الذى فيه يلفظ اللاوعى بنيته للذات... إن التباين ما بين البنية و ما يقال فعلاً يعبر عن اللاوعى ".[١]

وهذا يختلف عما ذهب إليه جاك دريدا، من أن استقلال اللغة عنا وسبقها علينا وعلى كل الوجود، يجعل اللغة نفسها مستقلة و سابقة على الوعى و اللاوعى البشرى.

٥ – الحضور و الغياب:

فى مقابل فكرة حضور المعنى فى صوت المتحدث مباشرة، ظهرت فكرة غياب المعنى فى جمود الكتابة، و بدلاً من تأكيد أهمية فكرة الحضور، تم تهميشها على حساب ظهور ضرورة و أهمية و جوهرية فكرة الغياب التى تؤدى دوراً مهماً فى عملية الدلالة، (فلابد من غياب المرجع أو الشىء – المدلول – عن اللغة الدالة عليه أو أن الارتباط بين الدال و مدلوله إنما هو ارتباط عشوائى، و الطبيعة المادية لكل منهما مختلفة، و لابد من الانفصال و الاختلاف و غياب المدلول حتى يمكن الإشارة إليه). فالغياب أصبح ضرورة لغوية[٢]. و هذا أيضاً يجرنا إلى نوع جديد من فوضى الميتافيزيقا حيث أصبحت الكتابة هى الغياب، حيث موت المؤلف، و إنكار القصد، و هروب المعنى، و التناص، و بذلك أصبح النص المكتوب يعبر عن لا نهائية المعنى أى غياب أى معنى ثابت.

---

(١) د / بشارة صارجى " البنيوية . . . غياب الذات ؟ " مقال فى الفكر العربى المعاصر عدد (٦، ٧)، تشرين الأول _ تشرين الثانى ١٩٨٠م، ص (٢٥).

(٢) د / ميجان الرويلى " قضايا نقدية ما بعد بنيوية " ص (٤٥ _ ٤٩).

٦- الاختلاف :

يتفق كل من دريدا و سوسير، على أن أساس اللغة عموماً هو الاختلاف (السلبى كما يحدده سوسير). و الاختلاف نفسه أمر لا يقبل الحد، و لا ينجم إلا كنتيجة تحقق القول الفعلى المادى، أو نتيجة الحرف الكتابى، فالاختلاف هو ما يُميز حرف عن غيره و أثر عن غيره، أى لا يظهر الاختلاف و التمييز إلا نتيجة تطبيقية، و التطبيق تابع لا سابق. (١)

ويمكن أن نوجه لدريدا و أتباعه النقد، حيث قولهم بأسبقية اللغة و أوليتها، و إن أساسها هو الأثر الأول و الاختلاف، اللذان معهما تبدأ اللغة فى تشكيل الوجود، حيث هى سابقة على كل موجود، فكيف يستقيم هذا مع حقيقة كون الاختلاف و الأثر الأول هما صياغتان لتطبيق فكرة أو نموذج سابق عليهما (كخطة عمل مقررة سلفاً قبل ظهور الأثر الأول و قبل عمل الاختلاف)، حتى يقع تميز الآثار عن بعضها وحتى نضمن فائدة الاختلاف، فى تمييز كل ما ينتجه عن ما سبق و أُنتج و ما سينتج من آثار متميزة عن بعضها باختلافها عن بعضها، و على نفس شاكلة الاختلاف يأتى اختلاف الرمز اللغوى للدوال. فكيف تسبق اللغة فى الوجود كل موجود ؟ و هل مع هذا يستقيم القول بأن اللغة هى التى تشكل الوجود ؟ وكيف تتضمن استراتيجية التفكيك الفكرة و نقيضها فى الوقت نفسه ؟ أليس هذا تناقض يكفى لتفكيك أسس استراتيجيتهم ؟

---

(١) المرجع السابق : ص (٤٧)، و يراجع أيضاً :

Gregory Ulmer, Applied Grammatology: " Post(e)-Pedagogy, From Jacques Derrida to Joseph Beuys " (Baltimore: Johns Hopkins University Press,1985), pp.16-29.

٧ – انتفاء المرجع:

المرجع عند النظرة التقليدية كان هو الوجود العينى لما تحيل إليه اللغة فى الخارج (الأشياء المشار إليها)، و حتى"مع نظرية سوسير لم يُلغ المرجع، و إنما أصبح خارج النظام اللغوى، و تتم الدلالة دونما حاجة إليه... فإن اللغة نفسها هى التى تبتدع و تبنى معرفتنا عن العالم الخارجى، و ليس العالم الخارجى هو الذى يملى خصائصه علينا. و مع هذه النقلة، يكون كل ما نعرفه عن العالم الخارجى، ليس هو العالم كما هو فى عريه المادى ((الحقيقى))، بل إن ما نعرفه عن العالم، و عن أنفسنا لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير اللغة ذاتها، أى أن ما نعرفه من خلال اللغة، لابد أن يكون نتاجاً لها لا سابقاً عليها، كما لا يمكن أن يكون هو ذاته سوى لغة تتكون من مجموعة أصوات اختلافية، فى نظام مبنى على اختلافات، تؤسس و تعكس فى آن واحد بنية الفكر ذاته".[١]

ونحن نكتفى هنا بنفس النقد و التعليق السابق، الذى أردفناه توا بنقطة (الاختلاف)، و لقد تعرض هذا الرأى (انتفاء المرجع) "لهجوم مكثف حتى من جهة الذين زعموا أنهم يدافعون عن ((الطبيعة)) الحقيقية، مثل الرومانسيين. أما الأنموذج الألسنى فقد جاء بالتفسير الأكثر ((علمية)) لنبذ المرجع و استبعاده. فمع الألسنية استطاعت اللغة فى النهاية أن تقطع علاقتها بالمرجع تماماً، و لم يعد بمقدورها كمؤسسة عُرفية اجتماعية، أن تحيل إلى ما هو خارجها. بل إن مؤسسى ما بعد البنيوية لا يرون خارجاً للغة. فاللغة من منظور "دريدا "و "فوكوه "و "لاكان "و "بارت "لا تعكس الكون و لا تعبر

---

(١) المرجع السابق : ص (٤٠).

عنه و إنما تختلقه و تصنعه، و بهذا تنقلب المفاهيم التقليدية رأساً على عقب".[1]

وفى نهاية عرضنا لأهم آثار الحداثة، و ما تابعها من مفاهيم خاصة بالحداثة وما بعد البنيوية، وما نجم عنه استخدام من مصطلحات جديدة تكمل النظرة الحداثية للغة، والتى منها على سبيل المثال لا الحصر، مراوغة الدوال واللعب الحر للمدلول، الميتالغة و الميتانقد، التناص و حدود و سلطة النص، التمفصل و فجوات النص، التلقى و إعادة الكتابة، لا نهائية المعنى والقراءة، و أخيراً فوضى النقد بدلاً من العلمية.

وعلى هذا وجدنا كيف تطورت النظرة للغة، منذ الصحوة الحداثية التى رفضت النظرة الكلاسيكية للغة على أنها (لغة تمثيلية) تعبر عن الأشياء (كل دال مرتبط بمدلول محدد)، فأتت الرمزية كمرحلة تطور، لتبحث عن لغة أكثر غنى بالمعنى من تلك (المستهلكة)، فنظرت للغة على أنها رموزاً (دوالاً) يجب أن تُشحن بأكثر مما تقول من المعانى المعتادة، فتحولت النظرة للغة على أنها يجب أن تعبر عن صورٍ شاعرية و أحاسيس جديدة لم تكن تعبر عنها بدون الرمزية، و نعتقد أن فى تلك المرحلة كانت البداية الحقيقة لانفصال الدال عن مدلوله (بحيث أصبح الدال رمزاً للدلالة المباشرة،عن عدة معانٍ تكون فى مجموعها، الصورة الشاعرية، التى كان يرمز لها الشاعر أو المؤلف، و ليس معنىً واحداً جامداً)، و بهذا لم يعُد الدال تربطه علاقة ثابتة بدال أو دلالة رمزية محددة. ثم أتت المرحلة البنيوية (الحداثة) لتنظر إلى اللغة على أنها مجموعة من العلاقات التى تربط الدال بغيره، ليكون معنى يتغير

---

(١) السابق، ص (٤٢).

دوماً بتغير علاقات الدال بغيره من عناصر اللغة، و بهذه النظرة تكون البنيوية قد قدمت التفسير العلمي لعملية فصل الدال عن المدلول (فعلاقة الدال بمدلوله هى علاقة عشوائية لأنها غير ثابتة و غير طبيعية ؛ بل هى متغيرة بتغير علاقة الدال بغيره من عناصر اللغة) فدلالة الدال الواحد تختلف بحسب موضعه من البناء اللغوى، و بحسب العلاقات التى يدخل فيها مجدداً مع غيره من دوال اللغة، لهذا جاء تركيز النظرة البنيوية للغة على نسق علاقات عناصر اللغة فى النص كنسق أصغر لنموذج أكبر هو النسق العام للغة هو الذى يُنتج أو يَحكم عملية الدلالة أو إنتاج المعنى، ثم أتت مرحلة ما بعد البنيوية، أو ما بعد الحداثة بنظرة للغة، تذهب فى الفصل بين الدال و المدلول إلى المدى الذى يختفى فيه المدلول تماماً، لأن اللغة من وجهة نظر ما بعد الحداثة هى مستقلة و أولية و آلية (و على هذا فتركيبات اللغة أو الصور التى يمكن أن يظهر بها الدال الواحد فى علاقات ممكنة مع غيره من دوال اللغة هى وحدها التى تُنتج أو تُبدع المعنى)، و لهذا فالدال أصبح يهرب، أو يراوغ مدلوله، حتى لا يتجمد أو يموت فى ثباته بعلاقة بمعنى واحد محدد، و أصبح كل مدلول يتحول إلى دال جديد بمجرد دخوله فى علاقة دلالية مع دال فى أى من تركيبات اللغة، و هذا ما أدى إلى ظهور مصطلحات جديدة فى الدراسات اللغوية (خاصة بنظرة ما بعد الحداثة للغة) كما سبق ذكره.

تعقيب:

رأينا فى هذا الفصل، الدور المحورى و الأساسى للغة فى تشكيل مجمل الفكر الحداثى على مستوى كافة العلوم و المعارف بل و الثقافة البشرية، إنها نظرة حداثية للغة أُعتمدت كنافذة حداثية تُبلور و يَنفُذ من خلالها فكر الحداثة و ما بعدها.

أما بالنسبة لعلاقة نظرية المعَرفة (اللغة) بجذور الحداثة، فاللغة لم تعد مجرد مبحث فلسفى ؛ بل أصبحت تمثل مجمل البحث الفلسفى، بحيث أصبحت بموضوعاتها محور صراع، و موضوع لوجهات النظر المختلفة بالقدر الذى لا ينم عن الخلافات و التناقض و التعارض بين وجهات النظر، بقدر ما ينم عن ثراء و صلاحية الموضوع للبحث الفلسفى و احتماله لتقبل مثل تلك التوجهات المختلفة. و الأهم من ذلك ما أكده البحث فى هذا الفصل من دور الريادة (للدراسات اللغوية) من حيث سبق التحديث للدراسة اللغوية (و كيف استفادت من الصحوة الحداثية)، ثم كيف نجح هذا النموذج اللغوى فى ريادة الحداثة (و منه استفادت الحداثة) و ما بعدها، بحيث أصبح هو المثال الذى يجب أن يُحتذى ؛ بل و تم تطبيق منهجه فى كافة العلوم الإنسانية من أجل تحديثها، فاللغة تأثرت و أثرت فى الحداثة، و هى السبب الأساسى لمأزق الفكر الغربى فى استراتيجية ما بعد الحداثة.

و إن كنا لا نرى نجاح النموذج اللغوى كمنهج صالح لجميع العلوم الإنسانية، و ذلك بسبب حالة الفوضى، و التوتر الذى خلفه استمرار تطبيق منهج النموذج اللغوى لتحديث باقى العلوم الإنسانية، مما أدى بالفكر الغربى إلى الشك، و المطالبة بمقاطعة و رفض، أو بمراجعة و نقد مجمل التراث الفكرى البشرى.

فنجد مثلاً "هوسرل "يرى "أن اللغة ((الحقيقية)) تعتمد على التعبير، و التعبير كما يراه هو المعنى كما أراده و قصده الناطق... هنالك إذن وعى يعنى المعنى و يعيه"[1]، فى حين وجهة نظر "دريدا "فى نفس الموضوع تتناقض مع ما يراه هوسرل، "فلا العلامات و لا وظائفها الدلالية تقتضى

---

(١) المرجع السابق : ص (٥٨).

حضور صانع يحركها و لا وعى يفعمها بالمعنى و الحياة، بل على العكس تماماً، فهى تقتضى غياب صانعها غياباً أساسياً... فاللغة تقتضى الغياب مثلما يقتضى الدال غياب المدلول، و بدون هذا الغياب الأصلى لا يمكن أبداً أن يتحقق الدال أو المدلول، بل ستنعدم اللغة "[1]، و هذا دليل كافٍ على التأثير البالغ للغة على حداثة الفكر الغربى، مما أنتج فى النهاية (ما بعد الحداثة) كل هذا الشك و الفوضى.

والجدير بالملاحظة هنا التناقض الذى يفتح الباب لتفكيك نصوص و آراء "دريدا "نفسه، فنجده هنا يستخدم لفظ (غياب) بمعنى الانفصال التام و عدم الوجود، فى حين يستخدمها بمعنى مغاير حين يتحدث عن تغييب المتضادات خلال عملية الاستبدال الأفقى لتركيب وحدات اللغة، بمعنى أن ذكرنا لكلمة ليل هى لا تعنى تغييب كلمة نهار، بل نستحضر النهار حين نذكر الليل، لأنه يحمل من النهار صفاته السلبية، فالنهار يستحضر الليل، و الليل يستحضر النهار بصفاته السلبية. و هكذا إذا ما طبقنا قواعد التفكيك على مفاهيم أساسية مثل تلك التى ذكرنها لوجدنا فكر و نصوص دريدا ستتفكك ذاتياً.

إن ما قصدناه من السطور السابقة هو التعليق و التعقيب، للكشف عن الأثر الذى خلفته عمليات التحديث على المعرفة واللغة، من خلال ما تم بحثه فى هذا الفصل، لنوضح أثر الحداثة (بمتناقضاتها) على اللغة والأدب والمعرفة، و أثر اللغة على الحداثة بما أنتج الفوضى و التشتت، بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الفكر البشرى، و أتضح لنا كيف غيرت الحداثة فى الدراسات اللغوية منذ غيرت النظرة الكلاسيكية للغة، بما جعل من اللغة المبحث الرئيسى لفلسفة الحداثة، بل و استفادة الحداثة من منهج الدراسات

---

(١) المرجع السابق : ص (٦١).

اللغوية، و رأينا أيضاً الدور المهم للبنيوية الذى غير مسار البحث اللغوى (من مسار النهج التاريخى الذى كان يبحث عن أصل الكلمات إلى المسار البنائى الذى نظر للغة باعتبارها نسق من العلاقات الثابتة بين العناصر، وتلك العلاقات يمكن دراستها فى حالتها الثابتة (دراسة حالة)، و تحليل تلك العلاقات لمعرفة أسباب التحولات فى البنية اللغوية)، و رأينا أيضاً كيف أتت آثار الحداثة و ما بعدها بمفاهيم و مصطلحات جديدة، خاصة بها، لتناسب التغيرات التى شملت الدراسات اللغوية.

إننا نرى أن هناك بعض الجوانب الإيجابية للحداثة، أما معظم أفكارها فتعتمد على براهين واهية، لا تستند إلا على مقدمات خاطئة افترضها لغويو الحداثة، و أسسوا عليها نتائج متناقضة، و تتضح وجهة نظرنا من خلال نقدنا لأهم نتائج هذا الفصل كاستراتيجية (أو كطريقة) لكشف تشتت و فوضى و تناقضات فكر ما بعد الحداثة (الذى جاء كنتيجة مباشرة لأفكار الحداثة)، و خصوصاً اللغوى منه، و هو نفسه الذى انعكس على الأدب و النقد و شتى العلوم الإنسانية، و من تلك النتائج.

أهم نتائج الفصل:

١. إن اللغة هى التى تبدع المعانى و تهبها الوجود بعيداً عن الوعى البشرى، فماذا عن المشاعر و الأحاسيس و الحالات النفسية (الخوف والفرح و الحب)، و التخيلات (الشعرية و الوهمية و العلمية)، والأخلاق و القيم هل اللغة هى التى تبدعها ؟، و إذا كانت الحداثة تبحث فقط و تدرس اللغة الشعرية أو الأدبية، فما موقف اللغة التقريرية للعلم و القوانين من التطور الذى طرأ على الدراسة اللغوية أم هناك مستويين للغة – هذا بغض النظر علمياً عن طبيعة عملية الإبداع و قدرات العقل البشرى – ؟.

٢. انتهت مركزية اللغة (التى كانت تسيطر على النظرة الكلاسيكية للغة) و حلت محلها فى فكر الحداثة فكرة لا مركزية اللغة، حيث أصبح ينظر لها على أنها مستقلة و آلية، و نحن نرى أن فى الأخذ بنتائجهم اللغوية مركزية جديدة تتمحور حول اللغة فنجد اللغة أولية و مستقلة و آلية فهى التى تبدع المعنى و تحدد الوجود و تُشكل الأفكار، و هى بهذا تكون المركز الوحيد (الجديد) للكون و الذى يدور حوله فكر ما بعد الحداثة دون أن يفصح عنه.

٣. أدت النظرة البنيوية للغة إلى القول بتعدد المعنى بحسب إمكانية تغير (تعدد) العلاقات التى بين عناصر اللغة، و تطورت الفكرة فيما بعد البنيوية (التفكيكية) بما أدى إلى القول بلانهائية المعنى و بلانهائية القراءات (التى تفكك الواحد منها القراءة السابقة عليها و تُخطئها)، ونحن نرى فى عملية تفكيك النصوص و القول بتلاعب المعنى ولانهائية الدلالة، دليلاً على أن اللغة التى تعمل آلياً (بحسب نظرتهم للغة) وتُبدع المعنى هى التى تُخَطىء فى كل (قراءة) مرة تحاول فيها إبداع معنى أو إنتاجه.

٤. لقد أسست البنيوية نظرتها للغة على أنها نظام (نسق علاقات) وعناصر البنية اللغوية، و طورت التفكيكية عنهم تلك النظرة حيث ركزت الاهتمام فقط على اللغة كنظام آلى مستقل، و تلك النظرة أدت بالتفكيكية للقول بأولية (سبق وجود) اللغة كنظام.

و لكن رواد التفكيك لم يوضحوا أيهما سابق فى الوجود على الثانى (النظام أم عناصر اللغة)؟ و إن كانا متلازمين فهل يكونان أيضاً أوليين؟، وكيف تكون اللغة هى التى تحدد الوجود و هى سابقة عليه قبل أن يوجد؟ فالوجود لابد و أن يكون موجوداً سلفاً حتى يمكن أن يمارسه

موجود آخر، و لكن ما هى طبيعة الوجود ؟ هل هو أيضاً له أثر أولى مكتوب و اللغة هى التى تكشف عنه ؟ فإن صح هذا الفرض فإنه يؤكد و يضمن أن كل ما له أثر أولى لابد و أن يكون موجوداً (قبل اللغة)، (و إلا ما ظهر للوجود و ما تَكَون هذا الأثر الأصلى) ليدل على وجود سابق على اللغة، تلك اللغة التى تأتى فى مرحلة ما بعد تَكَوّن الأثر، لترفع و تُشكل رموزاً مختلفة، يُميزها الاختلاف بحسب الاختلاف الذى حُدد و مَيز كل أثر عن غيره، و إلا فاللغة التى تؤسس المعنى و الوجود من خلال العلامة كيف لها أن تمتلك القدرة على إيجاد ما لم يكون موجوداً أصلاً؟ وحتى بالنسبة للأثر والاختلاف يَجب منطقياً وجودهما قبل اللغة.

٥. من خلال نظرة البنيويين للغة، لم يحددوا موقفهم من المرجع الخارجى الذى يُرد إليه (يُشير إليه) المعنى أو العلامة (و لكن كان موجود ضمناً ولم ينتفِ لديهم المرجع كصورة ذهنية تكونها اللغة حين حدوث المعنى)، و لكن جاءت نظرة التفكيكية للغة لتستبدل المرجع الخارجى للعلامة بالأثر الأول، من خلال فلسفتها اللامركزية.

و هنا لنا أن نتساءل عن المرجع الخارجى الذى يعدونه فى المعنى (أو العلامة) صورة للشىء الخارجى، فهل الرد هنا رد (إشارة) للمرجع الخارجى أم للصورة الذهنية عن هذا المرجع أم تُرد للأثر الأول كأصل؟ أم يرد فقط للغة (الأولية) التى ليس لها خارج و لا مرجع ؟ ثم كيف نقبل ترددهم الفكرى؟ حيث تارة يردون العلامة إلى صورة ذهنية (حين يتحدثون عن مراوغة الدوال لمدلولاتها)، و تارة أخرى يردونه إلى الأثر الأول (فى حديثهم عن أصل الكتابة الأولية)، و تارة أخرى ينكرون المرجع من خلال فلسفتهم اللامركزية.

٦. لقد مرت الدراسات اللغوية بتحولات مهمة من خلال وجهات النظر المختلفة التى تناولتها (الرمزية ثم البنيوية ثم التفكيكية) إلى أن انتهت بالنظر للغة على أنها كتابة آلية، لأن اللغة مستقلة و أولية و تملك من التراكيب الممكنة ما لا نهاية له، و من تلك التراكيب الجاهزة تبدع اللغة المعنى و تبدع الأفكار.

و نحن نتساءل عن آلية اللغة الإبداعية كيف تُنتج بعيداً عن العقل المُدرك لهذا الإبداع، من خلال تراكيبها الصماء (النظام و البينة)، تُنتج وحداتها المفعمة بالمعنى و المغرقة بالشاعرية للصور المفترضة ؟ فالاستبدالات المتاحة أفقياً و رأسياً لابد من عقل (مدرك) ليدرك نتائج هذه التكوينات الجديدة للعلاقات، فيقبل منها ما يعبر عن معناه (الذى يقصده و يتوجه لبنائه)، أو يحدد العقل هنا إمكانيات و كيفية ظهور المعنى، فالقضية هنا من الذى يبدع هل هو (الوعى البشرى) الذى يركب صياغات محددة لوحدات اللغة أم (اللغة) هى التى تبدع بتراكيبها (الصيغ الجاهزة) الممكنة لكونها تملك جميع الصياغات الممكنة ؟ إن مفكرى الحداثة (و من بعدهم مفكرى ما بعد الحداثة) يرون أنه ليس هناك مبدع بشرى و لكن هناك مكتشف لتراكيب لغوية قائمة سلفاً (سواء من خلال النسق العام للغة أو من التركيبات اللانهائية للغة)، و هذا ينفى أى دور للوعى البشرى فى تكوين أو تحديد المعنى لأن اللغة هى التى تُبدع و تَخلق المعنى، و لكننا لم نقف أبداً على معنى فرضته اللغة على نصوصنا، إلا التأويلات و حالات التلقى التى تفرضها على نصوصنا إمكانيات اللغة الفضفاضة من جهة، و من جهة أخرى ظروف و بيئة و وعى المؤول أو المتلقى. و على هذا فلا تصدق وجهة النظر القائلة باللغة الآلية إلا إذا نظرنا للغة على أنها لغة بلاغية تحتمل التأويلات

اللانهائية، و هذا يقتضى أن تستخدم اللغة بغموض متعمد يكشف عن إمكانيات اللغة البلاغية التى لا تحدد معنى بقدر ما تساهم فى تشويه أى معنى محتمل تأويله.

٨. واضح أن هناك فضل ينسب و يحسب للحداثة و قد يُعد من أهم إنجازاتها على مستوى جميع الأصعدة العلمية و الفكرية و الثقافية و الأدبية، وينحصر هذا الفضل فى المطالبة بضرورة مراجعة مجمل التراث البشرى و طرق التفكير، و هى دعوة حقيقية لليقظة و عدم التسليم بالواقع، هذا بغض النظر عن ما انتهت إليه ما بعد الحداثة من ضياع وفوضى، سنرصدها فى الفصل الخامس، و لكن مرجع هذا التشتت الذى انتهت إليه الحداثة هو فى التخلى عن إيجاد البدائل للتراث الذى تم تفكيكه، و الاكتفاء فقط بالهدم و كشف التناقض، مما أدى إلى الضياع والفوضى، و التبشير بأفول البشرية، و سبب هذا المأزق للحداثة وما بعدها كان مرده إلى خشية أو رفض مفكرى الحداثة اللجوء أو الوقوع مرة أخرى فيما رفضوه سابقاً (شبح الميتافيزيقا)، و اتضح ذلك من خلال دحضهم للمرجعية و المركزية و القصدية، مما أدى بهم للقول باستقلال اللغة و أسبقيتها على كل موجود، و كل ما ترتب على ذلك من نتائج أدت إلى لا نهائية المعنى و التناص و ضياع المعنى و محو هوية النص، و فقد العلمية و تفكيك كل شىء فليس هناك ثابت سوى اللغة النظام، التى تُولد الأفكار و تُستخدم اللغة للتعبير عن تلك الأفكار. [١]

---

(١) جميع تلك الأفكار سيتم ثبتها و بحثها و مناقشتها بالتفصيل فى الفصل الخامس.

وهذا فقط قد ينطبق على الفكر الغربى، و بالطبع ما يصلح لعلاج مشكلته قد لا يصلح لعلاج مشكلة الفكر العربى مثلاً أو الهندى أو الصينى، إذ من المغالطة بمكان أن نجمل القول على الفكر البشرى، و ذلك لأن لكل فكر ثوابته، و منهاجه المختلف تبعاً لمرجعه – أو فلنكن أكثر وضوحاً مختلفاً تبعاً لعقيدته –. فالفكر الغربى مشكلته الأبدية هى فقد الهوية لذا لجأ فى القرون السابقة للتمركز حول الميتافيزيقا، فكانت تعاليم و منطق أرسطو هما ثوابته و منهاجه، و مع الصحوة الحداثية و كشف زيف ثوابته و منهاجه، تم رفض كل التراث السابق، و لم يقم بتقييم دقيق لمسار فكره، فاستبدل تلك الثوابت (الميتافيزيقا) بأخرى جديدة بشكل تلقائى بـ(تداعيات النفس أو الذات الإنسانية أو كل ما تراه) من خلال لا نهائية المعنى، و استبدل المنطق بمنهج تحليلى شكى هدمى، لا يسمح بإعادة البناء بقدر ما يسمح باستمرار الهدم، لكل ما يطرأ من تلك التداعيات أو الانعكاسات، فسقط فى براثين الفوضى و الضياع ظناً منه أنه تخلى بذلك عن مركزية الميتافيزيقا و الذاتية.

٩. ومن يدقق النظر لا يجد الفكر الغربى قد تخلى أو تخلص منهما، بل لجأ لصور مُقَنَعة لنفس ما رفضه، فالذاتية أو الميتافيزيقا ماثلة فى كل قراءة جديدة أو فى كل عملية تفكيك لها، طالما صدرت عن بواعث أو تداعيات نفسية، حتى اللغة التى رفضوا كونها وسيلة تعبير و تواصل، فها هى تلعب فى حداثتهم نفس الدور التعبيرى الذى طالما عبروا به عن قراءة محددة دون غيرها مهما كان لهذه القراءة من غرابة، أليست اللغة هنا بخصائصها الاختلافية هى وسيلتنا لإبداع، و رصد أى قراءة جديدة، و ما التناص سوى صور لتكرار استخدامات لصيغ و وحدات لغوية تختلف قراءتها عن بعضها البعض فى كل تكرار

؟ و غير ذلك من قولهم باستقلال اللغة و جعلها جوهراً أو مركزاً جديداً، فهو عودة للمركزية و للميتافيزيقا، أما عن منهجهم فى النقد و التفكيك فهو قمة الميتافيزيقا المظلمة بدليل ما انتهوا إليه من فوضى و ضياع، فهذا المنهج قد يكون صالحاً إذا ما تقيد بدور مبدئى لنقد الأفكار السابقة عند مستوى محدد، ليمهد بعد ذلك لإعادة البناء، أو ليعين على إقامة بناء جديد على ثوابت تُنقد أولاً، أو على ثوابت تكون هى أشد من أن تفكك أو تنقد أى تكون لها مناعة من هذا المنهج الشكى، و تلك المناعة لا يمكن أن تتم إلا لنصوص غير وضعية كالنص المقدس السماوى. الذى ينأى و يند عن النقد، ولا ننسى أن لكل عقيدة مكانتها و أهميتها فى الفكر و العقل البشرى، إذ هى المرجع للفكر العربى المسلم و البشرى بكافة، فهو صالح لكل زمان و مكان، فالخالق جبل العقل البشرى عاجزاً على النهوض الكامل والشامل بجميع أموره، بدليل أن الله خلق البشر من روح وبدن، و حتى هذا الأرضى المادى جعل الله مفاتيحه بيده سبحانه و تعالى، فهو الذى يملك زمام النفس والنمو وخلجات الفكر ونبض القلب و غيرها من أمور مسيرة بأمر الله.

أما ملكة اللغة فهى هبة الله لعبده لتكون وسيلة للمعرفة للتواصل والتعبير. ثم هذا المرجع الإلهى من ذا الذى يتسنى له نقده أو تغييره سوى مُنّزلَهُ خالق كل شىء و إليه الرجوع، فالعقل البشرى مهما تقدم فيظل قاصراً فى الحدود، و القدرات فقط، بما يسمح له بالقيام بالمهمة التى خلقه الله لها، وهى عبادته طواعية من خلال عمارة الأرض، و لهذا كان لابد أن يهب الله للإنسان ملكة اللغة ليعبده بواسطتها و ليتواصل مع بنى جنسه فيتعاونو لعمارة الأرض، و ليميز ما فى الكون من مخلوقات.

وفى ضوء النقد العام للحداثة و ما بعدها نرى أن الفكر الغربى لم ينجز حلاً لمشكلته بقدر ما حدد مشكلته، و أخذ يضاعف فى تفكيكها حتى تفاقمت و أضحت فوضى و دماراً، و قد يكون مرد ذلك لأن رواد الحداثة و ما بعدها فككوا و نقدوا حتى التراث الدينى، بالعقل الذى لا يملك القدرة على احتواء النص المُنزل من الخالق، و ذلك لقصور العقل الناقد إذا ما قورن (حاشى لله و سبحانه و تعالى) بقدرات و إرادة مُنَزّل النص الدينى، وعلى ذلك ضاع منهم المرجع الذى كان ينبغى العودة إليه، و لكن الفكر الغربى آثر المضى بالتحديث فى نفس الاتجاه، بنقده لكل تراث سابق بدون معيار و لا رادع، بعدما لاحظ انكشاف زيف المسلمات الميتافيزيقية من خلال التقدم الذى أحرزته أسسه الثورية على الفكر و الثقافة و الفن الأدب.

١٠. لقد كان ذلك فضل و تأثير حركة التحديث على نظرية المعرفة، أما بعد التقدم و التطور الذى أحرزته الدراسات اللغوية و أصبح النموذج اللغوى نهجاً يحتذى، بدأت الحركة الحداثية تُجنى ثمار الأسس التى أرستها، لتستفيد من نجاح النموذج اللغوى لتصدره أو تفرضه على بعض أو كل العلوم الإنسانية الأخرى.

١١. و يجدر بنا هنا التذكير بالشق التقريرى، أو الإخبارى للغة، الذى فيه يرتبط الدال بمدلوله، و هو الشق الذى تغمض الحداثة عنه الطرف عمداً، لما فى بحثه من نتائج تتنافى مع مثالها المنشود (اللغة الشعرية البلاغية أو النقدية ثم الميتالغة)، و أتت النظرة التفكيكية للغة بنتائج أطلقتها (التفكيكية) عامة، على اللغة من منطلق نظرتها للغة كنظام، متناسية استنتاجها لهذا النظام من نظرتها للغة، على أنها مجموعة عناصر تنتظم بحسب قواعد (نظام) و لذا فهى قابلة للاستخدام (كأداء)، و نفس القواعد هى للغة الإخبارية، و تعد من طرق استخدام اللغة كنظام

! و قد تكون نظرة الحداثة، و ما بعدها للغة تنطبق فقط على اللغة الأدبية لأنها تعمل فى مجال نظريات النقد الأدبى، و لذا فلا يجب أن تعمم نتائج نظرتها اللغوية على اللغة عموماً.

١٢. و من نتائج نظرة ما بعد الحداثة اللغوية أنها رأت أن اللغة آلية و أولية و سابقة فى الوجود على كل موجود، فهى التى تهب له الوجود فقط حينما تعبر عنه، و هى تكون مستقلة عنه، و عن وعيه، وعن لا وعيه، و نحن نرى أن الوجود الأولى هو وجود غفل و فراغ (موجودان فى المكان)، تحفهما الاختلافات بحسب خصائصهما الذاتية التى تظهر للوجود من خلال تشكيلهما للآثار الأولية لكل موجود، ثم بعد ذلك أتت القدرة العقلية للمخلوقات العاقلة (بحسب درجتها)، مُهيأة (من قبل الخالق) بإمكانيات تسمح لها بإدراك تلك الآثار(بالمعرفة و اللغة)، للتمييز بين كل منها، و رصد الاختلافات، و ذلك لتكوين نوع من الخبرة عنها، و تصورات لها و تصنيفها رمزياً بنفس كيفية تعدد الآثار (و المعرفة هنا تتكون عبر الزمان)، و تظهر اللغة و هى مقدرة عقلية أودعها الخالق بعقول مخلوقاته ليتعارفوا، كبنى جنس واحد، و ليعلموا ما فيه خيرهم و ما يضرهم، و تتدرج المعرفة و اللغة بحسب قدرة المخلوق و إمكانياته، لنصل إلى درجة المعرفة الإنسانية التى توفرت لها ملكة اللغة لتساعد الإنسان على اشتقاق اللفظ، و تكوين علاقات لغوية له مع غيره، من عناصر بنية اللغة (سواء على مستوى الحرف أم على مستوى الكلمة أو الجملة)، إذ ليس هناك سبق و لا أولوية لغوية سابقة على الوجود، فاللغة ملكة و موهبة أعطاها الخالق لمخلوقاته، لتشتق لنفسها رموزا و ترتبها لتصنف و توظف لغتها الخاصة، وهذا يعنى أن اللغة كنظام هى هبة الخالق للبشر (طبيعة)، و اللغة كاستخدام و أداء هى عُرفية اتفاقية

(ثقافـــــة)، و دليـــــل ذلـــــك أن ملكـــــة اللغـــــة متســـــاوية فى وجودها عند جميع البشر لتُعد مَوهُبة (أة هبة من الله) و قدرة عقلية من لوازم الفكر، و لكن تطبيقات إمكانات الإنسان اللغوية (كقدرته على الاشتقاق الرمزى و تكوين علاقات لغوية) تختلف بحسب المجتمع الذى يتعارف أفراده على لغة معينة سواء نطقاً أم كتابةً(*)، و على ذلك فاللغة لا تظهر و لا تتكون إلا فى حضور وعى، أو ملكة تكون اللغة ضمن خصائصها التى جُبلت عليها (كالعقل البشرى أو ما يقوم مقامه لدى مخلوقات أخرى).

وبعد ذلك ننتقل لبحث نقاط الفصل الثالث من هذا البحث، و الذى فيه نتوجه بالبحث فى علاقة البنيوية بمذهب كانط، لنكتشف مرحلة أخرى مهمة من المراحل التى مرت بها جذور الحداثة، و أهمية الفصل التالى تنبع من الأهمية التى ظهرت لنا فى هذا الفصل، من التحول المهم التى شهدته الدراسة اللغوية خلال المرحلة البنيوية، لذا وجب علينا تخصيص الفصل الثالث لبحثها بالتفصـــيل، لنقـــف علـــى أهـــم الأفكـــار التـــى قامـــت عليهـــا البنيويـــة، و كيف تأثرت ببعض من أفكار كانط الفلسفية و المنهجية.

(*) فتجد عدد الحروف الهجائية (عناصر بنية اللغة) تختلف من اللغة العربية (٢٨ حرف)، اللغة اللاتينية (٢٦ حرف)، اللغة الصينية (أكثر من ٥٠٠٠ وحدة)، و الاختلاف نفسه نجده بين اللغات المختلفة على مستوى النظام الغوى الذى تحدده القواعد المنظمة لعلاقات عناصر تلك اللغات، فمثلاً لا نجد فى اللغات اللاتينية نظير لتاء التأنيث كما فى اللغة العربية، وكذلك لا نجد نظير فى اللاتينية لأنواع الجمع (التكثير و المؤنث و المذكر السالم) المتعارف عليها فى مجتمع اللغة العربية، و غير ذلك العديد من الاختلافات التى من شأنها تأكيد وضعية اللغة كأداء و عدم أولويتها أو أوليتها .